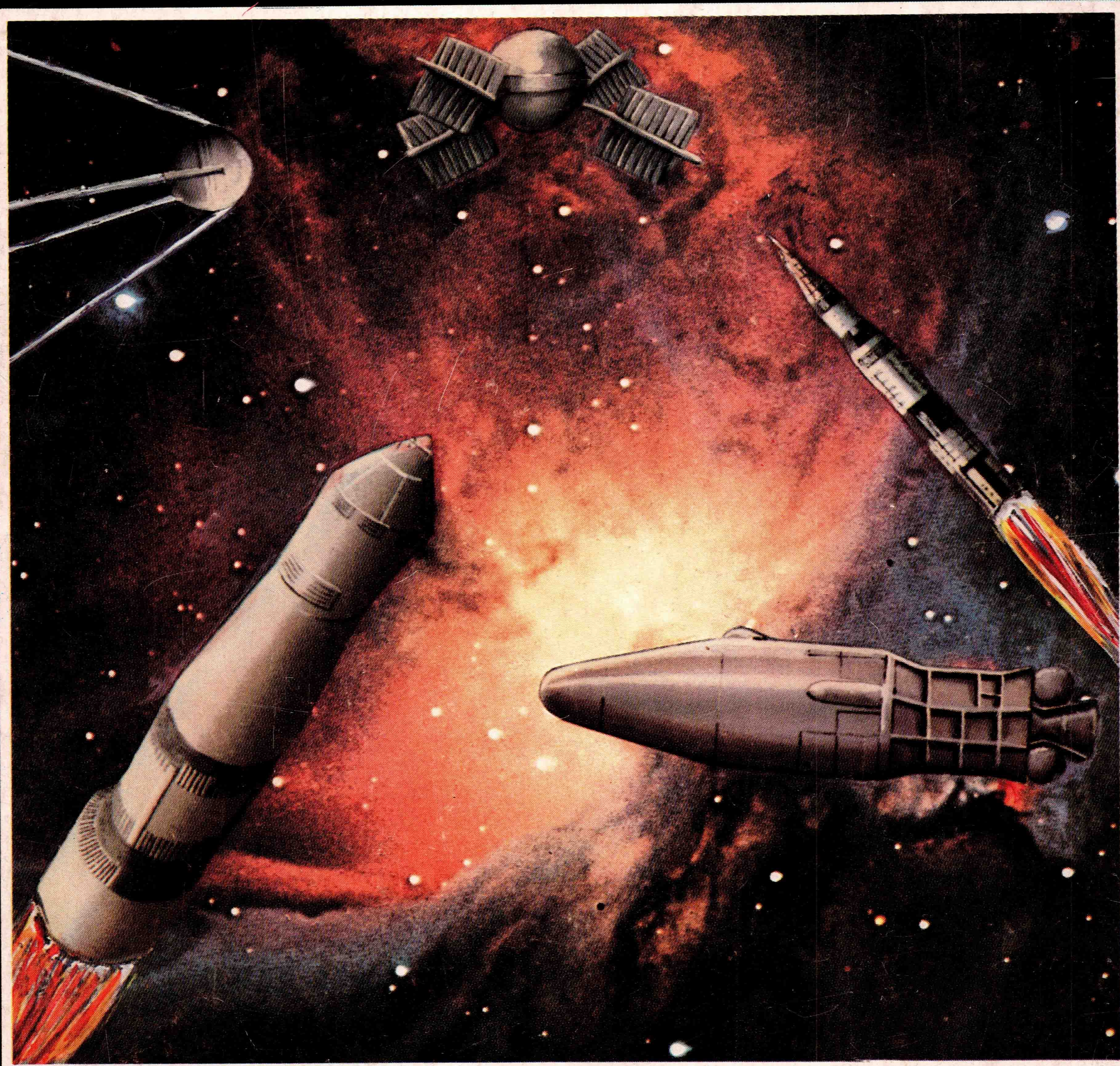
حرب النجوم

والحرب العالميّة الثّالثة

موسى زناد



دار الرائد العربي

بيروت . لبنان

حرب النجوم

والحرب العالميّة الثالثة

حرب النجوم

والحرب العالميّة الثالثة

تأليف

موسى زناد



دار الرائد العربي

بيروت ـ لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار الرائد العربي - بيروت - لبنان
ص.ب: ٦٥٨٥ - تلكس: LE ٤٣٤٩٩ رائد

الاهداء :

الى غصن الزيتون ...

الى حمامة السلام ...

والى كل من يؤمن بهما ...

« موسى »



المقدمة

حادثتان تقفزان الى ذهني كلما حاولت الحديث مع الحياة المُعاصرة، أراهما وقد سمرتا الفكر وطلبتا اليه أن يرددهما، ولا يملُ ذلك، أولا ضرب المدن اليابانية بالقنابل الذرية، وثانيهما إعلان ريغان عن برنامج حرب النجوم.

ولم أكد أقرأ هذا العنوان «حرب النجوم» الذي أصبح جملةً مألوفة، حتى وجدت نفسي مشدودة اليه لا تكاد تلتفت الى غيره من العناوين. فلقد تمر أمامي كل يوم مواضيع شتى قلما يستدعي أحدها مني التفاتة، ونادرًا ما تتطور الالتفاتة الى اهتمام سوى قضايا وطني وأمتي وقضية الانسانية الحُبلى بهذا الابن الغير شرعي، السفاح... الاسلحة النووية على تعدد أنواعها.

وتراني اضغط الحروف بشفتي ضغطاً عسيراً فأتساءل، يا تُرى.. ماذا يخبئ القدر لهذه الارض القابعة على فوهة بركان؟ ولكن لا أحد يجيب.. أنها نهاية الارض، وأنها لنهاية مسدودة لا مناص منها ولا مفر من الحيّرة عندها. وأعود أُبلل شفتي وأبتلع ريقي وأتساءل من جديد؛ باسم البشرية، ممثلة الله على الارض، ومبدعة الحضارة.. دعوا الناس يسيرون في فجاج الحياة باطمئنان. ورحتُ أستدرك فأكتب جملةً تتحرّق للمثول أمام القُرّاء؛ انّ هذا الافتنان المخبول بالتقدم العلمي ينبغي أن يعد في الأصل مكرمةً

يتشرف بها الانسان لا تقيصة وعيباً!

وانا أستميحُ القارئ عذراً، فنحن لم نرد أن نلتقي بمثل هذه الصعوبة وانما حدث هذا بفعل الحاح السؤال.. ثم أن ليس عندي، اولًا، سوى القلم والكتابة، وثانياً فأنا لم أتجنّ على مشروع ريغان الذي يكفي ١٢٪ من ميزانيته لاشباع جوع كل جائعي افريقيا.. تلك حقيقة حاسمة وجسورة.. ولا أراني أجيدُ عن العزف على اوتار الغضب من خلال كتاباتي.. والكتابة بالنسبة لي نافذة مفتوحة تنسكب منها الى صدري انفاس الحياة وينطلق منها إلى الآخرين معالم كل حق وخير.. ولست منصتاً لابواق ترى في الردع لمجرد الردع علامةً تزفُّ البشرى للعشاق وتهديهم وروداً وتنثرُ للاطفال علب حلوى ولعب تسلية بها يضحكون ويمرحون..!!

وواضح من نبرة العبارة أنها تتضمن قدراً كبيراً من «الضحك على اللحى» ولكن الشيء المؤسف هنا، ان هذه العبارة حقيقية قائمة. واذا كان هناك ما يؤسف له في هذا المضمار، فهو خلو المكتبة العربية من ترجمات لها مشفوعة بدراسات فكرية رصينة تطلع المواطن العربي على ما يجب أن يعرفه من الحقائق عن عدوٍّ يستهدف تدميرنا، ونحن الى حدٍ بعيد، ما زلنا نجهل هذا العدو.

فهل ما فتئ هذا الطارئ الوافد الينا منذ نيف وربع قرن من الزمان مجهولًا يكاد لا يعرفه الا الخاصة من العلماء ولا تسمع به الا القلّة الضئيلة من المثقفين؟ أنه ليصعب، في الواقع، تصور هذا السيل العارم من الكتب والمقالات في أمورٍ وقضايا شتى، بينما يخلو هذا الموضوع الحساس من أقلام تكتب فيه وأوراقٍ تحكي عنه وافكار تتوارد من تلك الاقلام فوق هاتيك الاوراق لتجلي العتمة عنه، وتُنير المسالك اليه!!

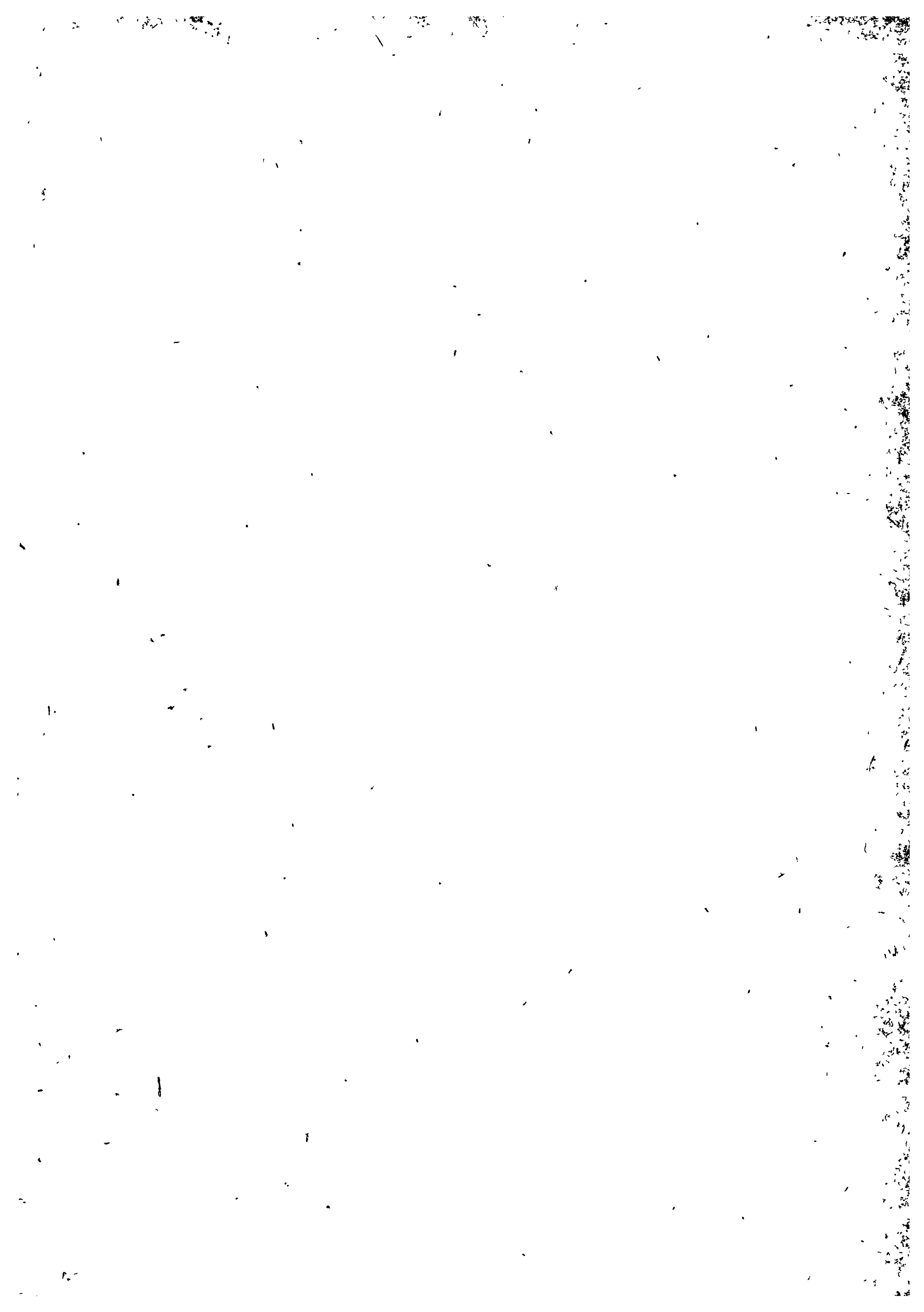
فالكثير من «دعاة الأقاويل» في العالم، ينجرف اليوم في تلك التيارات التي تطبّل لمبادرة ريغان وتنعتها بدرع السلام ومبادرة الدفاع عن الارض، ويستسلم لها بخدرٍ لذيذ كالتذاذ الاجرب بحك جلده.. ولكن تبقى بعد

ذلك ورغم كل شيء، قلّة واعية ذات عيون نافذة وبصيرة ثاقبة تستطيع التقاط الجوهر من القشور وتميّز الطيب من الخبيث.

اننا لا نريد أن نشارك في خياطة كفن البشرية ولا أن نسير وراء نعشها وحفر مرقدها الاخير... ولكن علينا أن لا ننام على سرير الوَهن والضعف تحت ذريعة أن العالم قد سبقنا!! ان تلك الذريعة هي البالوعة التي تسقط فيها كل الاسئلة الهامة، وتسقط معها البديهيات من الحياة. وهي أن الحياة صراع، ومتى ما صارعت شرورها بأنياب الخير تكن لك اليفة وسمحةً.. نعم ان للخير انياباً لأن للشر انياباً مثلها. وان المثابرة والجهد والمعرفة هي السبل الوحيدة للوقوف بوجه الشر.. انها أنياب الخير التي ستطبق على رقاب اهل الشر فتذيقهم جحيم العذاب.

ان حرب النجوم حلقة في سلسلة طويلة، ولكنها منتظمة في خيط رفيع.. انه الحرب والاقتتال.. واذا كانت تلك حلقة رهيبة فعلينا أن نقف بجزمٍ أمامها.. علينا ان نتفق على أن القرن القادم سيكون مُقدّساً، أَو ليس السلام قضية مقدّسة؟ أذن فعلينا اذا أردنا دخلوه أن ننزع احذيتنا على عتبة بابه.. والأحذية هي كل ادوات العنف والدمار.. وحينئذٍ سنقفُ جميعاً امام الله بقلوب عامرات بالمحبة والسلام ونعيش بحب وسلام على أرض المودّة والسلام.

موسى زناد سهيل
في التاسع من شهر آب
عام ١٩٨٦، بغداد



قصة
القنبلة الذرية الأولى

عندما أنهى العالم (أنريكو) مع علماء المانيا الغربية وفرنسا أعماله العلمية حول الإنشطار النووي، وتولّدت طاقة حرارية هائلة جداً كنتيجة فيزيائية لعملية الانشطار، طارت هذه الفكرة الى الولايات المتحدة الامريكية عن طريق العلماء الالمان المهاجرين. وهناك تمت اللمسات الأولى لصنع أول قنبلة ذرية في العالم، من قبل فريق البحث الذري الامريكي الذي كان على رأسه (روبر يوليوس اوبنهايمر Robert Julius Oppenheimer) الذي ولد عام ١٩٠٤ ومات عام ١٩٦٧.

ان اوبنهايمر، وهو فيزيائي نووي أمريكي، كان قد حصل على درجته الجامعية الاولى في الفيزياء عام ١٩٢٥. ثم التحق بجامعات اوروبية عديدة لمدة أربع سنوات حيث تخصص في الفيزياء النظرية وفي عام ١٩٣٩، عين عضواً في هيئة التدريس بجامعة كاليفورنيا فأظهر إمتيازاً على أقرانه. وكان اوبنهايمر فوق ذلك مشهوراً بثقافته العامة الواسعة.

فهو أحد المتخصصين في أديب إيطاليا الكبير، صاحب ملحمة الكوميديا الإلهيّة «دانتي Dante». وهو يتقن لغات عدة من بينها السنسكريتية. وهو من هواة تسلق الجبال وهو أولًا وأخيراً عالم فيزياء دولي مرموق في أبحاثه ودراساته.

ومثل علماء أمريكيين وأوربيين كثيرين، عرف اوبنهايمر طريقه الى

العمل في إنتاج القنبلة الذرية من خلال جوّ الفزع العام الذي سيطر على علماء عديدين غداة نشوب الحرب العالمية الثانية، لئلا تستطيع المانيا النازية أن تسبق الحلفاء في انتاج السلاح الرهيب وفي استخدامه.

وأولى حيثيات ذلك الفزع العام، هو ما عبر عنه اينشتاين عام ١٩٣٩، في الرسالة التي أرسلها الى الرئيس الامريكي روزفلت عن طريق مستشاره الاقتصادي ساكس. ونذكر القارئ، ان ساكس هذا كان صديقاً حميماً لاينشتاين. وكان ثمة دلائل عديدة على أن الالمان يعملون في هذا المجال بسرية كاملة.. ومن هذه الدلائل المتوفرة، ان المانيا قد استولت على الوف الاطنان من اليورانيوم الطبيعي عندما اجتاحت بلجيكا. وأنها تفاوضت مع حكومة تشيكوسلوفاكيا، لأخذ اليورانيوم والراديوم الموجودين بمناجمها. وعندما اجتاحت المانيا النرويج، وضعت يدها على أول مصنع في العالم لإنتاج الماء الثقيل-الذي يمكن باستخدامه بناء مفاعل ذري بسهولة فائقة.

وعندما بدأت المانيا بناء الصواريخ V-2 زاد قلق العلماء في الغرب. وكان منطقهم ببساطة، أن هذه الصواريخ من الصغر بحيث يكون تأثيرها ضعيفاً، اذا استخدمت المتفجرات العادية لها. ولا بد والحالة كذلك، ان يكون هدفها الحقيقي، استخدام الرؤوس الذرية.

لقد ثبت، تاريخياً، ان الالمان فشلوا، رغم جهودهم، في إنتاج القنبلة الذرية. وكان لهذا الفشل اسباب عديدة، من بينها أن التنافس بين الوزارات المختلفة في المانيا لإنتاج القنبلة الذرية قد أعاق، بشكل أو بآخر، التنسيق وأدى في النهاية الى تبديد الجهود. ومن بينها أيضاً خطأ علمي بسيط -وإن كان قاتلاً- وقع فيه الالمان وأدى بهم الى البحث عن الماء الثقيل فقط، لاعتقادهم، أنه يستحيل علمياً، استخدام الجرافيت كوسيط في مفاعل ذري يستخدم اليورانيوم الطبيعي. ذلك اعتقاد قاد الى ثان مفاده؛ أنه لا مفرّ من استخدام الماء الثقيل في مثل هذا المفاعل. فأدى هذا بالالمان الى الاعتماد الكامل على المصنع النرويجي للماء الثقيل.

هذا المصنع الذي استهدفه الحلفاء فدمرته طائراتهم اكثر من مرة.. مما أدى الى تعطيل برنامج العمل.

وفي هذا الوضع المتشنج والجوّ المحموم، وجد أوبنهايمر نفسه عام ١٩٤٢ مطلوباً، وبإلحاح، للعمل في مشروع القنبلة الذرية وكان ثمة نتائج علميّة تبشر بنجاح المشروع، من بينها أن العالم الإيطالي الجنسية (انريكو فيرمي) سالف الذكر، قد استطاع أن يبني في أمريكا مفاعلًا ذريًّا يقوم على استخدام الجرافيت عام ١٩٤٢. ومن بينها أيضاً، أن بريطانيا قد عرضت أن تشارك أمريكا في كل معلوماتها عن هذا الموضوع.

وعندما اجتمعت أول لجنة علمية من كبار العلماء لبحث المشروع تحت قيادة الجنرال ليزلي جروفر المسؤول العسكري عن القنبلة الذرية، بدا واضحاً له منذ أول جلسة، أن اوبنهايمر هو أفضل العلماء لقيادة المشروع من الناحية العلمية. فهو، الى جانب إمتيازه العلمي، قادر بشخصيته على أن يقود الآخرين. وهو رجل ذو كفاءات ادارية عديدة، وهو محبوب من الناحية الشخصية من كثير من العلماء الاوروبيين والامريكيين.

وهكذا بدأ مشروع «مانهاتن» تحت قيادة روبرت اوبنهايمر الذي نجح في مسعاه. ففي يوم السادس عشر من شهر يوليو عام ١٩٤٥، في صحراء توينتي للتجارب، بولاية نيو مكسيكو، وقف الفريق العلمي، ومن بينهم أوبنهايمر، الذي نُعت فيما بعد، بأبي القنبلة الذرية، وقفوا جميعاً ينظرون لأول إنفجار نووي. وهالهم ما رأوا، فأطلق اوبنهايمر الصيحة المشهورة «يا إلهي..: ماذا صنعت؟!».

بعد نجاح المشروع، بدأ أوبنهايمر، يحاور نفسه وضميره حول مشروعية استخدام هذا السلاح الرهيب في الحرب. لقد كان اوبنهايمر واضحاً وحاسماً في ضرورة انتزاع قصب السبق من المانيا النازية في إنتاج القنبلة حتى لا يفاجأ الحلفاء باستخدامها ضدهم. كانت المانيا الهتلرية قد دُمِّرت واستسلمت وكانت القوات الروسية قد اجتاحت برلين دون قيد أو شرط

ولم تبق إلا اليابان تقاوم مقاومة هزيلة بأمل الحصول على شروط أفضل للهزيمة.

ومنذ أن استسلمت المانيا النازية في مايو ١٩٤٥، إنتهى والى غير رجعة، جو الفزع المحموم الذي ساور الحلفاء، من دون أن تجد المانيا النازية طريقها الى القنبلة، بدأ العلماء الاميركيون وفي مقدمتهم اوبنهايمر، يفكرون في النتائج الطويلة المدى المترتبة على وجود هذا السلاح الاستراتيجي الرهيب. وبدأوا يتساءلون: هل من الضروري استخدام هذا السلاح الآن؟ واذا استخدم، فالسؤال الذي يليه هو: كيف؟ ثم ماذا سوف يحصل للبحوث الذرية ومعلوماتها بمجرد أن تنتهي الحرب؟

تلك عيّنة من الاسئلة العديدة التي بدأت تعذب الضمائر، وتُغرق الافكار في خضم جلبة ولغطٍ صادر عن شيءٍ لم يعد في عداد الطبيعة، وانما هو متفلّت منها، شيء أهوج شيطاني تقيّأتهُ الطبيعة. فهو يخوض مباراة نهائية جبارة ضد سيّده الذي رعاه.. تماماً كما يصارع الثور الاسباني مالكهُ الذي علّمهُ كيف يكون الصراع!

ومن الواضح الآن، ان اوبنهايمر، بعد أن استسلمت المانيا، لم يكن متحمساً لاستخدام هذا السلاح في اليابان. وأنهُ لمن دأبنا أن نذكر هذه الحقيقة، فنحن أُناس ذوو تدقيق، ومقاييس ومنطق. فقد كان التقدير الصائب لهذا العالم المفتون بموضوعه العلمي، أن استسلام اليابان مسألة وقت لا أكثر ولا أقل. ولقد سنحت الفرصة لنا آنفاً لنتبيّن ان المانيا قد فشلت في الحصول على القنبلة الذرية وأن نتعرف على أسباب ذلك الفشل. وكان يشاركهُ هذا الرأي، ويشاطره تلك البديهيّات عدد كبير من العلماء، وقد عبّر غالبية هؤلاء العلماء عن هذه القناعة في الاستفتاء الذي أجرته الحكومة بينهم حول البدائل المقترحة في استخدام هذا السلاح.. وأول هذه البدائل كان استخدام السلاح في اليابان لإنهاء الحرب. وقد صوت بتأييد هذا الاقتراح ـ الذي يبدو صوريًّا اكثر منه واقعيًّا ـ (٢٣) عالماً من بين

(١٩٠). والبديل الثاني الذي طرح على بساط البحث والدراسة هو القيام بتجربة ميدانية في اليابان، يتلوها عرض في الإستسلام قبل استخدام السلاح.. وقد صوت الى جانب هذا الإقتراح (٦٩) عالماً. والبديل الثالث هو القيام بالتجربة الميدانية في امريكا، بحضور ممثلين لليابان، يتلوها عرض للإستسلام قبل استخدام السلاح وقد أيّد هذا الإقتراح (٣٩) عالماً.

وكان البديل الرابع هو عدم استخدام السلاح على أن تعلن امريكا عن وجوده لديها، وقد صوت الى جانب هذا الإقتراح (١٦) عالماً فقط. ثم طرح البديل الأخير هو عدم استخدام السلاح وعدم الاعلان عن وجوده. وهذا البديل لم يحظ بقبول من لدن العلماء، فلقد صوت الى جانبه عالمان فقط.

لقد كان واضحاً من هذا الاستفتاء، ان غالبية العلماء كانت تؤيد -كحد أدنى- عدم استخدامه فوراً، او الانذار باستخدامه، مع عرض بالاستسلام. ولكن العسكريين والسياسيين كان لهم منطق آخر! آنذاك كانت روسيا السوفيتية قد إنتهت من حربها في الجبهة الالمانية وبدأت قواتها في الشرق الأقصى التحرك ضد اليابان. ولذا كان العسكريون الامريكيون حريصين على استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان فوراً حتى يعجّلوا باستسلامها قبل أن تتقدم القوات السوفيتية في الشرق الاقصى. ومع ان ألكستدر ساكس المستشار الاقتصادي للرئيس الامريكي فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt، قد حاور رئيس الجمهورية في ديسمبر عام ١٩٤٤ حول ضرورة القيام (ببروفة) أمام كل العالم لهذا السلاح قبل استخدامه الفعلي، ومع ان روزفلت قد وافق على هذا الاقتراح، الا ان وفاته المفاجئة في عام ١٩٤٥ وتولّي هاري ترومان Hary Truman رئاسة الجمهورية الامريكية قد غيّر الموقف تغييراً كاملاً.

فور استلام ترومان للسلطة، عيّن في نيسان ١٩٤٥ لجنة معظمها من العسكريين التقدم له النصيحة حول استخدام القنبلة الذرية. وكان من

الطبيعي، في لجنة من هذا النوع، على رأسها وزير الحرب أن توصي باستخدام السلاح فوراً، وان ترفض إقتراحات وضعت امام اللجنة بضرب غابة قريبة من طوكيو ليلًا، كإنذار أولي. أو اعطاء انذار للاهالي، بوقت كاف للجلاء عن المناطق التي تقع ضمن دائرة الضربة الذرية..الخ.

وقد صدر قرار اللجنة بالاجماع. ثم عاد أحد الاعضاء ـ بارت ـ وهو نائب وزير البحرية، فأعلن معارضته للقرار، وأكّد هذا بتقديم استقالته. وسواء كان (بارت) في عمى عن الأخطار الجسيمة التي قد تنجم عن الضربة الذَّرِّيَّة أم أنه ادرى بكوارثها، فإن محاججته لاعضاء اللجنة كانت تعبر عن وجهة نظره ـ التي تخفي وراءها طموحه الشخصي ـ المتمثلة بأن البحرية الامريكية كفيلة بتركيع اليابان، دون استخدام هذا السلاح وان الجيش في امريكا يريد استخدامه، حتى ينسب لنفسه فضلًا في استسلام اليابان.

وينبغي في هذا الصدد، التذكير بأنه حينما ساعد التنافس بين الوزارات الالمانية في افشال مشروع القنبلة الذرية، نرى أن التنافس بين الوزارات الامريكية قد سارع في تفجيرها ومن ثم ضرب اليابان بها.

وفي آخر ربيع عام ١٩٤٥ عندما سأل الجنرال (هاب ارنولد H.A. Arnold) جنرال الطيران (لوماي)؛ الى أي مدًى ستطول الحرب ضد اليابان في رأيه. رد عليه هذا الاخير؛ «أمهلني ثلاثين دقيقة». ثم إستدعى احد معاونيه. وقاما بعملية حسابية تتعلق بعدد المدن اليابانية التي يلزم احراقها بالطائرات، وعدد الطائرات الضروري لهذا الغرض، والايام التي يحتاج اليها لتنفيذ العملية. ذلك أنه اذا لم تبق مدن للإحراق فمعنى هذا ان الحرب قد وضعت اوزارها. آنذاك ردّ لوماي على ارنولد «أول سبتمبر يا سيدي».

وهكذا.. إختار ترومان أخيراً أن يلقي قنابله الذرية على اليابان، على الرغم من أنه كان واضحاً من المفاوضات السريّة، أنّ اليابان كانت

مستعدة للاستسلام والرضوخ لكل شرط، ما عدا تمسك الحلفاء بإزاحة الامبراطور من السلطة.

وفي ٦ أغسطس ١٩٤٥ قامت الطائرات ب-٢٩ تحمل الصبيّ الصغير -كما سُمِّيت القنبلة الذرية- الذي ألقي على هيروشيما، التي كان يسكنها ٣٠٠ الف نسمة من مدنيين وعسكريين في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحاً.

لقد كان انفجار القنبلة الذرية الاولى -وهي ذات عيار (٢٠ كيلو طن)- على ارتفاع الف قدم. والغرض من ذلك إيقاع اكبر عدد ممكن من الخسائر في أبنية المدينة، كما تزداد نسبة الخسائر نتيجة اللهب الوهّاج اللافح للانفجار.

وبعد ثلاثة ايام من هذا الحدث المروع، أي في ٩ أغسطس من نفس العام، أُلقيت القنبلة الثانية على ناكازاكي، ولم يكن قد مضى على دخول الإتحاد السوڤياتي الحرب ضد اليابان اكثر من ٢٤ ساعة!!

ولئن كنا -قبل هذا التاريخ- لا نستطيع ان نتمثل بداية للصراع الامريكي الروسي، فإنه يتحتم علينا أن نتمثله بعد عملية إلقاء القنبلة الذرية. لأن تلك العملية وضعت حدًّا مأساويًّا للحرب العالمية الثانية واستسلمت اليابان، وفتحت بذات الوقت، حرباً دائمة بين معسكرين متناقضين.

ان الكارثة التي حدثت لهيروشيما، لم تكن عاصفة النيران التي ارادها لها جنرال الطيران لوماي، بل هيَ الكارثة الجهنمية التي أصابتها والتي كانت من قنبلة واحدة جرى اسقاطها من طائرة واحدة. وكان هذا بمثابة طفرة هائلة في الكم Quntum Jump بالنسبة لتاريخ التقدم بوسائل الفناء. ولما أبصر الجنرال لوماي، الصور الفوتوغرافية التي التقطت لهيروشيما بعد أيام قليلة من تدميرها، قال «تأكد لي أننا ازاء ظاهرة غير مألوفة البتة».

وهذا قولٌ صادق الحقّ لا الباطل.. فقد دلّت الاحصاءات اليابانية على ان ضحايا قنبلة ناكازاكي التي يسكنها ٢٣٠ الف نسمة، هم ٧٠ ألف قتيل و١٣٠ ألف جريح-من بينهم ٤٣ ألفاً جراحهم خطيرة. وقد أعلنت قيادة الحلفاء في ١٩٤٦، ان ضحايا هيروشيما بلغت ٧٨,١٥٠ قتيلًا و١٣,٩٨٣ مفقوداً و٩,٤٢٨ جريحاً جراحهم خطيرة و٢٩,٩٩٧ جراحهم خفيفة. ولقد إرتفعت تلك الخسائر فيما بعد نتيجة التأثير الكبير للإشعاعات النووية المتبقية أو ما يسمى بالمتساقط النووي. Fall-out الناتج عن الانفجارات فوق سطح الارض.

هيروشيما
والمأساة الانسانية

في امبراطورية هيروهيتو، وطن الشعب الاصفر موضع البلاد التي ساندت هتلر في الحرب العالمية الثانية؛ اليابان، مسرح الموت فيما مضى والتقدم التقني فيما بعد الكارثة، توجد مدينتان فيهما موقع احد فصول الجريمة الكبرى البشعة ورمز المأساة الأليمة، هما هيروشيما وناكازاكي.

كانت الرهبة تتملكني وأنا أقرأ السطور، كلما حوت تلك السطور بعضاً من فواجع تلك المأساة، كنت أغرق في حلم واقعي وكأنني أسافر على متن طائرة نحو هيروشيما. كنت في كل تلك الانواع من رحلات اليقظة، أشعر بقلبي يتثاقل، وخواطر شتى تتدافع في عقلي، بينما السيارة تنقلني من طوكيو العاصمة الى هيروشيما.

كانت ساعة غسق مشوب بالصفرة، والطريق غير مأهول.. وكل شيء هادئ على جانبيه، بدا لي شكل السماء حزيناً، وأحسستُ داخلي بالانقباض. وأشهد أنني لم أرَ في حياتي ظلاماً أحلكَ من ذاك الظلام الدامس، حتى أنني ادركت، والسائق الذي معي، اننا بحاجة الى أن نمشي مشية كالدبيب لنتطلع بعيوننا على كل تفاصيل الجريمة.

عند مفترق الطرق، رأينا الناس، الذين نجوا من الكارثة، يجلسون على الارض في اسمال بالية ووجوهٍ شاحبة وعيونٍ شاخصة. كانوا يتألمون من اشد انواع الآلام الجسدية، ولكنهم يعانون من أشق الوان العذاب

النفسي... فكل منهم يشهد هول الفاجعة ولا يقدر أن يصفع خصمه، فهو مهيض الجانب، معدوم الحيلة، لا يملك أن يدرأ عن نفسه وأهله الذل والهوان.

فتوقفت هنيهة عن السير، فتجهم وجهي وتقطب جبيني وأدميَ قلبي وأُحرقت مدامعي. ولكننا تابعنا مسيرنا كأننا مُسيَّران لا مخيّران حتى وصلت السيارة الى موقع الكارثة... الى بوابة الحراسة الخارجية... فتبادل السائق بضع كلمات مع الحراس، ثم بعد ذلك وقفت السيارة... ووجدت نفسي وجهًا لوجه أمام المأساة..

ماذا عساي أن أجده وأحس به هناك؟ هذا السؤال كان محور كل شيء تقع عليه عيناي وتسمعه اذناي.. لم أجد الا جثثاً محروقة بنار الحريق النووي، ورؤوساً مهشمة من شدة العصف ودماءً متخثرة من أثر الإشعاع، وجلوداً مسلوخة من هول الحرارة اللاهبة وهياكل عظميّة مسحوقة كالتراب من شدة الانفجار النووي... وغير ذلك مما لم تره عين أو تسمعه أذن أو يفهمه عقل أو يصدقه ضمير... حيث أن الجثث تحيط بالأرض إحاطة السوار بالمعصم، إنها صورة مأساويّة تقشعر لها الأبدان، لم تطلع الشمس عن أشنع منها، إنها الصورة الدميمة الشوهاء للقوة النووية.. فالذي رأيته ما هو الا حصاد الفعلة الشنعاء الذي لاح لي من طرف المدينة أما اعماقها، أما ما بعد الأطراف والخافات الظاهرة فلا يمكن الإطلاع عليها.. فاللافتات الكثيرة تنبهك...؛ قف.. الطريق الذي تمضي فيه شائك وخطير.. وعليك نزع ملابسك لتخوض في الدماء المسفوكة المخلوطة مع الجلود المحترقة والعظام المسحوقة والجماجم المهشمة!!!

فقعدت أُحدِّث نفسي... لقد سرحت ببصري في الأفق البعيد.. لقد أضاع الإنسان أخلاقهُ وخسر إنسانيتهُ.. كنت أريد ان التمس فيه بصيصًا من الإنسانية، ولكنه غالى في عناده وأسرف في كبريائه، وبدت عنجهيته مقروءة على كل قسمةٍ من قسماته، فكنت أسأله مع انه لم يلق لي بالًا،

ترى ما أبعد الفارق بين الإنسان الذي روّض هذا المارد ـ الذرّة ـ فجعله ملكًا له، طوع يده وخادم لحاجته.. وبين الإنسان منذ أجيال قريبة، حينما كان ينظر الى القمر كأعجوبة غامضة، يحيطها بالشائعات والخرافات.. ولكنك أيها الإنسان، تنظر اليوم الى خسوف القمر او كسوف الشمس كظاهرة طبيعية، ترقبها باهتمام، لمجرد إرضاء الفضول الذي هذبتهُ العقلية العلمية.. ولكن الاقوام القديمة لم تكن تعرف ما تعرفه أنت اليوم عن الكسوف والخسوف من حقائق علمية.. ومن ثم فإنها كانت تنسج حول كلا الظاهرتين أساطير خرافية، فتعزو احتجاب الشمس ـ في أولها ـ واحتجاب القمر ـ في ثانيها ـ الى شرّ اراده الشيطان.. أو على حسب إعتقاد أهل المكسيك القدامى، ان الخسوف والكسوف إنما يحدثان نتيجة شقاق بين الشمس والقمر، وان أحدهما ـ في غمرة الشجار ـ يتغلب على الآخر فيظل يضربه حتى يجعل جسمه أزرق! فإذا عاد القمر أو الشمس الى شكله الطبيعي، قالوا أنه تغلب على الجانب الآخر، ليخفي عن الناس عاره!

نعم، إنه فارق كبير يشير الى فجوّة في الشعور الإنساني يضاهي ذلك التخلف العلمي العميق.

لقد بكت الإنسانية هيروشيما طويلًا، حتى جفّ نور عينيها ولم تعد تلمح سوى الظلام، في حين أن رجالات القوّة الغاشمة تجلس في حانات الجبروت، تعبُّ أنخاب النصر عبَّ الغشيم وتضحك ملء الاشداق من لا شيء.. وتقول كلاماً ليس ذا معنى دون ان تدري أن لها على الأرض شركاء أو أنّ لها في الإنسانية أشقاء... كأن الدنيا قد خلت لها وحدها... فلا تلعثمت الألسن ولا تعثرت فوق الشفاه الكلمات.

وإني انبئك أيها القارئ الكريم، ان ذلك يكشف عن دواخل نفوس أكسبها حب السلطان وحشيّةً فوق ضراوتها لقد كانت تلك القوة عرجاء، فأرادت أن تجعل من تلك الجثث تكأة تصعد عليها بساقها العرجاء الى

عرش الحكم. كانت تقتل بشراً من اليابان ليعيش آخر في ميامي وتكساس.. وتسلبُ فلسطينياً أرضه لتسلمها الى إسرائيلي دخيل عليها. وتميت إفريقيًّا في تشاد وأنغولا وارتريا من الجوع والمرض، ليحيا الرجل الأبيض في بحبوحةٍ وسعةٍ من الرزق. وتشعل في لبنان شُواظَ حرب عاتيّة لتُفرغ ترسانات الاسلحة العتيقة.

وفي مأساة هيروشيما، كانت تلك القوة الغاشمة، تشربُ أنخاب الإنتصار في حين كان الياباني يلعق جراحه وهو يسمع بمدنه تتهدم وبالخراب يستشري في وطنه. ولكم تفتّت كبده وأفريَ فؤاده، في وقتٍ كانت القوة الغاشمة تتذوق الشهد وتتنسم العطر الفواح بمناسبة الانتصار السعيد حتى اذا أقيم نصب لتخليد ذكرى الإنتصار المجيد فإذا بالجماجم تحلّ في بنيانه محل الأحجار، والنشيج بدل الزغاريد.

وهذه القوة الغاشمة حتى وإن أوقظت من الغَشيَة التي ظلت بها ردحاً من الزمن، أو الاغماء الذي سيطر عليها وقتاً غير قليل، فانها قد يعتريها حَيْنٌ هائل فتسرح بخيالها الثمل وتتصور المآتم وتتذكر الفواجع فترتعد من صحّوه الضمير السليطة فتبكي بدموع التماسيح على قتلى أبرياء... تبكي حتى النشيج.. ولكن العدالة ممسكة بتلابيبها.. وستتعقبها ارواح ملايين الآدميين ضحايا الحرب أينما ماتوا وحيثما وروا التراب.

قلت كل ذلك لهيروشيما.. لقد جعلوك يا هيروشيما مختبراً لآلتهم الجهنمية التي اكتشفوها.. فهل أنتِ نهاية أم انك محطة على طريق التشتت الطويل.. على درب الكفاح المرير..؟

فلم تحر جواباً.. نعم أنا الكابوس الذي أفزعَ اليابان وأيقظها من رقادها.. أنا المارد الذي نفخ فيها كل عوامل القوة والتقدم واليقظة.

وأيًّا كانت المأساة، فثمة نقطة هامة يتعين الإشارة اليها في هذا الصدد، وهي أن اليابان لم تبق قط في مثل هذا الوضع السئ، وذلك لأن الشعب فيها لم يستسلم في مواجهة الطغيان المستبد وشراسة الحكم المطلق محلياً كان

أم استعمارياً. ولأن اليابان بحجمها جسم ضخم ثقيل الوزن.. لا يتحرك باندفاع متهور بل بدفع محسوب.. كانت سماتها تبدو سمحة اليفة، لكن أعماقها تغلي وقاعها يغور.. لقد اختارت لنفسها طريقًا يصلها الى امتلاك ناصية العلم والتقدم، وهو الذي ارتقته عدوتها وقيّدت حريتها بسلطانه وجبروته. وعندما سلّمها قياده طوعاً تمكنت منه بالرغم من الطغيان والتبعية.

حيث لا يعرف تاريخ الشعوب من ينكر أن الطغيان هو نغمة أساسية في دراما الشعوب المغلوبة. وقد لا تكون اليابان اكبر سجن في العالم، ولكنها أقدم سجن في التاريخ.. ولا زال السَّجَّان عملاقاً يحمل مفاتيحه حتى وهو هرم، منخور القوى.

وأيًّا كان أصل الطغيان الامريكي، وأيًّا كانت أسبابه وجذره، فإن نتائجه وخيمة. فهو قد خرب الشخصية اليابانية من الداخل، إضافةً الى جروحه المميتة، تخريباً مروعاً على مدى القرون والاجيال حتى تركها هشياً.. ولعله يكفي للتأكيد على هذه الحقيقة ما يرتبط بها من تصور لأساليب الغزو الفكري أن نعود الى ما حدث في اعقاب الحرب العالمية الثانية في اليابان.. ولنحدد مصادر المعلومات بهذا الخصوص حتى لا تخرج علينا أبواق التكذيب. أول مصدر هو كتاب للعالم الامريكي، «الأشهر كاهن»، عن اليابان، ولن أذكر سواه ففيه ما يكفي.

ولنتذكر بادئ ذي بدءٍ، انّ كاهن هو العقل المفكر لمؤسسة «راندكوربوريشن». وقد كان كاهن مستشاراً للرئيس كنيدي في لحظة معينة. هذا الكتاب يحمل عنوان: اليابان. وهو يشير الى أساليب الغزو الفكري.

وتلك الأساليب ترمي لجمع المعلومات الميدانية وهي ليست بأيِّ حال، بقصد علمي مُنزّه. فلقد كانت تقوم بها قوات الإحتلال وتخضع لإدارة عسكرية. وهي اليوم في المجتمعات المتخلفة تتولاها أجهزة ظاهرها جهات مدنية ولكنها تنتهي بأن تصب في أجهزة الأمن القومي الامريكي الصانعة

للسياسة الخارجية لتلك الدولة أو على الأقل، المحددة لأهم مؤشرات ومتغيّرات تنفيذ تلك السياسة.

لكن.. كل ذلك التخريب من الخارج وإحداث الشروخ العميقة من الداخل لم يجد نفعاً... لأنّ في اليابان جرحاً إسمه هيروشيما.

فهيروشيما والبشرية حقيقتان من حقائق عالمنا المُعاصر، لكن الأولى جزيرة والثانية محيط. هيروشيما قلب نابض بلا جسم يحتويه.. فالجسم عليل والبشرية بأكملها هي جسم متضخم بقلب متعب ومنهوك. فهذا القلب به من العلل الكثير، أقلّها ما تكوّى في هيروشيما بويلات الضربة الذرية.. فعلى الجسم ان يتّعظ، وأن لا تخدعه علامات النقاهة، فقد تكون صحوة الموت!

لقد أفاقت هيروشيما من سباتها، وعادت في ريعان شبابها كأنها بنت العشرين او تكاد، تميسُ باستحياء، خدّاها ضرجتها حمرة الخجل، وعيناها تحدقان في الأُفق البعيد من وراء أهدابها الوطفاء، لقد إرتجّت فترة من غلواء الموقف العصيب، فوفّرت لنفسها هماً وحبست آلامها حبساً وحكمت على شخصها بالسجن نأياً عن كل راغب ودفعاً لكل خاطب.. لكنها ولجت ساحة المعرفة ودخلت معركة العلم، فعادت بنت العشرين المرحة المستبشرة التي تقهر بمرحها كل حزن، وقامت تختال في الدنيا مثل مهر أبي فراس الحمداني. كانت هيروشيما لا تأكل كثيراً، ولكنها تعمل كثيراً وتعرق اكثر... لذلك لم تكن بحاجة الى من يُخرج أحشائها كل عام بقصد التنظيف بل كان الغير بحاجة لعد إنجازاتها وإحصاء أرقام إقتصادها.

لقد عاد الوعيُّ الى اليابان، فأصبحت اليوم قبلة رجال الاعمال والمديرين الامريكيين والاوروبيين الذي يضلون اليها يومياً بالآلاف، ليس فقط لعقد الصفقات، بل أيضاً في محاولة منهم لتفهم الموديل الياباني الذي أمكن لليابان عن طريقه أن تقهر أعتى الدول الصناعية القديمة في عقر

دارها. والاسطورة اليابانية او الموديل الياباني أصبحا حديث الاوساط كافة في الدول الغربية.

ولا جدال ان ما حققته اليابان من انجازات اقتصادية انما يصل الى حد المعجزة ويفوق بكثير ما حققته المانيا بعد الحرب العالمية الثانية. ولعل بعض الارقام خير دليل على ذلك. فالناتج القومي الاجمالي في اليابان زاد خلال ثلاثين عاماً من ١٩٥١ حتى عام ١٩٨١ ثماني وسبعين مرة، وذلك من ١٤,٢ مليار دولار الى ١١٢٧ ملياراً وهو ما يعني معدل نمو سنوي متوسط قدره ٢٦١ ٪ في حين كان المعدل السنوي المتوسط في المانيا الاتحادية خلال نفس الفترة ٧٧ ٪وفي فرنسا ٢٩ ٪وفي بريطانيا ٣٨,٨ ٪.

اما الصادرات اليابانية فقد زادت من ٢٨٧٧ مليون دولار عام ١٩٥٨ الى ١٢٩٧٢ ملياراً عام ١٩٦٨ بمعدل سنوي متوسط قدره ٦٥,٢ ٪ثم الى ١٥٢٠٣٠ مليوناً عام ١٩٨١ بمعدل سنوي متوسط قدره ١٨,٧ ٪.

وفي صناعة السيارات أصبحت اليابان في فترة وجيزة اكبر منتج للسيارات في العالم. فقد انتجت عام ١٩٨١ - ٦٩٧٤٠٠٠ سيارة، وصدّرت ٣٩٤٧٠٠٠ سيارة، في حين ان صادرات الولايات المتحدة والمانيا وفرنسا وايطاليا مجتمعة في العام المذكور بلغت ٤٢٧٣٠٠٠ سيارة.

وصدّر اليابان عام ١٩٨٠ حوالي ٣ ملايين طن من الحديد الصلب وهو ما يعادل تقريباً مجموع صادرات الاتحاد السوڤياتي والولايات المتحدة والمانيا الاتحادية في نفس العام !!

- انّ خير دليل على الطموح والمثابرة للشعب الياباني هو الموقف فيما يتعلق ببراءات الاختراع. فعلى سبيل المثال ان عدد طلبات تسجيل براءات الاختراع في اليابان عام ١٩٨٠ بلغ ١٩١٠٢٠ طلباً بينما بلغ في الولايات المتحدة ١٠٤٣٢٩ طلباً. ليس ذلك فقط، بل أن نسبة الطلبات المقدمة من يابانيين الى اجمالي طلبات تسجيل براءات الاختراع بلغت ٨٦,٨ ٪في حين أن نسبة الامريكيين في الولايات المتحدة بلغت ٥٩,٥ ٪.

وموضوع آخر مرتبط بالتقدم التكنولوجي والعلمي وهو استخدام الكومبيوتر. ففي حين بلغ مجموع كافة انواع الكومبيوتر في اليابان عام ١٩٦٥ ـ ١٤٤٥ جهازاً، بلغ العدد في عام ١٩٨١ ـ ٨٨٢٣ جهازاً وهو ما يعني بمعدل نمو متوسط قدره ٣٨٣٪.

من الارقام المثيرة ايضاً ما جاء في نشرة «معهد الانسان الآلي في امريكا»، ان عدد «الإنسان الآلي» في اليابان بلغ في سنة ١٩٨١ ـ ٦٨٩٩ أي حوالي ضعف ما تملك منه الولايات المتحدة والمانيا الاتحادية مجتمعتين!!

أما في مجال العناية الصحية، فقد شهدت اليابان تطوراً كبيراً وهو ما انعكس بدوره على متوسط عمر الانسان هناك. ويقول البعض، أنه في حين كان متوسط عمر الرجل الياباني ٤٢,٠٦ سنة في الفترة من ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ والمرأة اليابانية ٤٣,٢٠ سنة، أصبح ذلك المتوسط ٧٣,٧٩ سنة للرجل و ٧٩,١٣ سنة للمرأة عام ١٩٨١، حتى أن أكبر معمر عالمي في الوقت الحالي هو الياباني (شيتشيو أبروجي) الذي أتمّ ١٢٠ عاماً في شهر حزيران عام ١٩٨٥. وهو ما يعني أن اليابان فاقت في هذا المجال، أعرق الدول المتقدمة في المجال الصحي وهي دول اسكندنافية!!

وإنني، بعد هذا الذي كتبته، فأنا لا أملك الا الكتابة والقول وأستعيض عن كل ما يقال بالكتابة، تلك الهبة الإلهية العظمى التي تنجدني بالبيان حيث يعي اللسان.. بعد ذلك كله، اقول للعرب جميعاً، جملة واحدة هي؛ أيها العرب، اذا كان في اليابان هيروشيما فإن فيكم فلسطين، أفلا تتعظون؟!.

«التاريخ»
والحرب والتوتر الدولي

لقد إتفقنا أو تعودنا الاتفاق، على أن نقرأ السالف سواء تاريخ نعاين في عمـرانهم وأحـوالهم ومعـاشهـم وتكـوّن واضمحلال دولهم وحـروبهم وغزواتهم؛ أو أعمال نظر (ايديولوجية) ننقّب فيها عن رؤاهم ومعارفهم. وبقدر اتفاقنا على ذلك فقد إفترقنا في كيفية القراءات وانماط المنافع التي تنطوي عليها.

فالتاريخ كما يراه الفيلسوف الاسباني المعاصر «ميجيل اونامونو»؛ هو ما حدث لك في جولتك.. ثورة الأمس - حصاد اليوم اليـوم، احتفـال الغد.

بالزمان الحالي والمكان الحالي، يمكن فهم الأحداث الماضية. والحاضر وحده مفتاح الماضي، ومن خلال ما يوشك أن يحدث، يمكن أن نعرف ما حدث منذ عهدٍ بعيد. وذلك الذي لا يشارك في الحاضر بصورة أو بأخرى لم يكن اكثر من ظل سريع الزوال.

الظن الشائع، اذن، حول التاريخ هو الماضي.. وبعبارة أخرى كأن الصورة التي تقفز الى مخيلتنا لدى سماعنا كلمة «التاريخ» هي صورة مستوحاة من إحدى ساحات التاريخ القديمة.

وفي ساحات التاريخ قاطبةً، وخلافاً لما يأمل المثاليون، فالأصل في العلاقات الدولية، على ما يبدو، هو الإختصام والحرب، وليس الوئام

والسلام. فمنذ معركة قادش ١٢٨٨ ق.م. التي دارت بين الجيش العربي الفرعوني بقيادة رمسيس الثاني وجيش الحثيين بإعتبارها اول معركة تيسّرت لها وثائق مفصلة والى يومنا هذا، عرف الانسان الحرب كظاهرة طبيعية عامة. وقد أثبتت تلك المعركة بأن قدامى المصريين أتقنوا فن الحرب بدرجة رائعة. أما الانظمة العسكرية في بلاد ما بين النهرين، فالقوانين البابلية التي وضعها حمورابي، كذلك الحال ازاء الأشوريين، نراها قد إشتهرت بالتنظيم والتعبئة. وبصدد الجيش الاسلامي فإننا نراه قد طبق مبادئ مهمة في الحروب التي خاضها، ومنها المعنويّات والعقيدة، خفة الحركة، التعرض والمباغتة، الشؤون الادارية والميرة والإمداد.. الخ.

وخلال الحملات النابوليونية ظهرت فنون الحرب، لأول مرة. إذ يعتبر نابليون أول من أدار الحرب بمعايير غير محدودة دعت المفكرين الى دراسة اساليبه للوصول الى قواعد او ركائز يقتدي بها قادة المستقبل في ادارة الحرب.

ولم يتطور فن الحرب، بالشكل الذي يلمس جديّاً، الا بعد انبثاق الثورة الصناعية التي نتج عنها دخول اسلحة متطورة.

لقد لعب كل من كلاوزة فتز وهنري جو ميني دوراً كبيراً في تثبيت الخطوط العامة للمبادئ الاساسية لفن الحرب.

ومع ذلك، إنه بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة من الحرب-لم يقرْ نهائياً في كوكبنا هذا على المبادئ الأساسية التي تطبق في علم وفن الحرب، لسبب بسيط هو أن الحياة في تطور دائم وذاك معناه دخول اسلحة جديدة تضيف مبادئ أخرى على السابقات.

وفي دراسة أجرتها مؤسسة كارنيجي للسلام عام ١٩٤٠ عن حروب العالم في التاريخ إقتبست من رسالة « إيفان - س. بلوخ » الشهيرة عن مستقبل الحرب، ذكرت ان احصاء بيّن أنه منذ العام ١٤٩٦ ق.م. وحتى العام ١٨٦١ ميلادية - وهي دورة زمنية طولها ٣٣٥٧ عاماً - شهدت

البشرية ٢٢٧ سنة من السلام مقابل ٣١٣٠ سنة من الحروب. بمعنى آخر، ان هناك ١٣ سنة حرب مقابل كل سنة من السلام!

وفي احصاء أحدث تبيّن أنه خلال ٥٥٦٠ عاماً منذ عرف تاريخ البشرية وحتى عام ١٩٤٥ حدثت ١٤٥٣١ حرباً بمعدل ٢,٦١١٣٥ حرب كل عام!!. كما تبيّن أنه خلال ١٨٥ جيلًا من الأجيال، لم ينعم بسلم مؤقت من بينها الا عشرة أجيال فقط.

وقد نكب العالم خلال الأعوام الأربعين التي انقضت منذ وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها بما يزيد على ستين حرباً بينها حروب إتسع نطاقها الى درجة مفزعة رهيبة، وحروب طال أمدها على الرغم من ضيق نطاقها، وحروب خاطفة بلغت اقصى درجات الشراسة والضراوة، على الرغم من أنها لم تدم إلا بضعة أيام أو أسابيع. معنى ذلك، أن البشرية تواجه مرة كل خمسة شهور على وجه التقريب نزاعاً مسلحاً عنيفاً في مكان ما من العالم. وغالباً ما ينجم عن هذا النزاع كوارث إنسانية مروعة وخسائر جسيمة في الأرواح والمعدات والأموال.

وفي الحرب العالمية الثانية، عندما شرع البريطانيون في تكثيف غاراتهم الجوية على المانيا الهتلرية، اثناء الحرب العالمية الثانية، لم تلبث القيادة الجوية البريطانية أن ادركت أن الطريقة المثلى لتدمير المدن ليس في قصفها بالمتفجرات بل بحرقها تماماً. ذلك أن القنابل ذات الانفجار العالي ليس من شأنها أن تحدث سوى أضرار محلية، مما يحتاج الأمر معه الى تكعيب قوة انفجار القنبلة حتى يمكن تربيع المساحة المدمرة. أضف الى هذا ان الآلاف من حاملات القنابل البريطانية من طراز لنكستر Lancaster وهاليفاكس Halifax والتي كانت تمثل آنذاك اكبر طائرات الأسطول الجوي المغير على المانيا في العام الثالث للحرب، لم يكن بمقدورها أن تحمل من القنابل ذات الانفجار العالي ما يكفي لاكثر من احداث فجوات من التدمير داخل المدن.

ومن المتفق عليه، انّ القنابل ذات الانفجار العالي كانت شيئاً مخيفاً في حد ذاتها بالنسبة للإنسان، غير ان خطرها كان محدوداً، وعدد ضحاياها ليس بالكبير عادةً.

وفي مارس من عام ١٩٤٢ عندما هاجمت حاملات القنابل البريطانية مدينة لوبيك Lubeck الالمانية كان الحافز الى ذلك شوارعها الضيّقة ومنازلها الخشبية العتيقة التي كانت تمثل هدفاً جيداً للحريق، وهذا ما حدث فعلًا. ولما امتدت الأيام بالحرب، هجر البريطانيون الغارات الجوية النهارية التي كانت تهدف نقاطاً صناعية محددة، وذلك لفقدهم عدداً كبيراً من الطائرات التي جرى إسقاطها بوسائل الدفاع المدني، وأيضاً لما أحاط من صعوبة بإصابة الهدف على نحو دقيق. ومن ثم فقد كان الثمن باهظًا، بينما كانت الحصيلة زهيدة. لكل هذه الاسباب مجتمعة فقد لجأت قيادة حاملات القنابل الى الغارات الليلية، وذلك بضرب الضواحي المحيطة بالمراكز الصناعية الالمانية. وهكذا عاونَ الظلام على حماية حاملات القنابل، بينما كانت المدن الكبيرة بما فيه الكفاية لإبصارها في العتمة. كذلك جرى تغيير في حمولة الطائرة، فأصبح ثلث الحمولة يضم القنابل العالية الانفجار التي تحطم النوافذ والأبواب وتسحق الخشب الى قطع صغيرة كعيدان الثقاب. أما بقية حمولة الطائرات فكانت تتكون من القنابل المحرقة التي تشعل النيران في الركام.

غير أن فن إحراق المدن لم يبلغ الدرجة القصوى، الا في يوليو من عام ١٩٤٣، وذلك عندما ساقت الغارات المتعاقبة على مدينة هامبورغ الى انبعاث ظاهرة جديدة في الحرب ـ هي عواصف النيران. ولقد جرى أفظع تدمير في ليلة ٢٧ـ٢٨ يوليو عندما أسقطت سبعمائة وخمسون من حاملات القنابل البريطانية ما يعادل الفين وثلاثمئة وستة وعشرين طناً من القنابل على مدينة هامبورج، كان نصفها من القنابل المحرقة. وكان القصف في تلك الليلة بالذات يمثل سيلًا متدفقاً بدرجة غير عادية، مما أدى الى اشعال نار حرائق هائلة نتج عنها ارتفاع في درجة الحرارة بلغ ما يقرب من الالف

درجة مئوية في مركز الحريق. وساق هذا بدوره الى اجتذاب ريح صَرْصَر عاتية من جميع الجهات لتغذي هذه النيران. وكل من وجد نفسه خارج المخابئ وعزّ عليه الفرار ذهب طعمة للنيران، والبعض الآخر ساخت أقدامهم في الاسفلت المنصهر، أو ذابت أجسادهم خارج أبواب الصلب المثبتة على مداخل المخابئ عندما تأخروا في اللواذ والاحتماء بها. ولما فتح المختبئون الابواب للخروج بعد انتهاء الغارة الوحشية وجدوا أنفسهم أمام مستنقعات من الشحم البشري تغطي الأرض. وقد بلغت الحرارة في بعض المخابئ درجة من الشدة أن احترقت اجساد البشر داخل تلك الأفران فأكتسبت لوناً بنيّاً داكناً وانكمشت الى حجم اجسام الاطفال او ماتوا من الاختناق لأن عاصفة النيران إمتصّت جميع الاوكسجين من داخل المخابئ. ويتضح من دراسة أجرتها، بعد الحرب، وحدة المسح التابعة لقيادة القاصفات الامريكية ان عدد ضحايا غارة جوية عادية على منطقة مدنية كان يبلغ في المتوسط الفاً وثمانمائة وخمسين شخصاً، غير ان عدد ضحايا تلك الغارة على هامبورغ تجاوز الأربعين ألفاً. أما هل عاونت هذه الغارة على كسب الحرب؟ فهو أحرص العسير الجزم به، ذلك ان من أسباب الهجوم على هامبورغ كان أهميتها كقاعدة لبناء الغواصات الالمانية التي أحدثت ذلك الفتك الذريع بسفن الحلفاء. حتى انها كادت ان تقطف ثمار النصف اليانعة من لدن الحلفاء. فقد خرج من احواض بناء السفن بميناء هامبورغ اربعمائة غواصة أثناء الحرب، نصفها قبل هذه الغارة والنصف الثاني بعدها. ومهما يكن من شيء فإن الغارة على هامبورغ أحدثت هزة عنيفة للقيادة العليا الالمانية، وفي ذات الوقت أقنعت المتحمسين لفكرة الغارات الجوية من بين الحلفاء بأنهم قد عثروا على المفتاح لهزيمة النازية عن طريق الجو. فقامت قيادة القاصفات الامريكية بتدمير مدينة درزدن بغارة مماثلة في فبراير ١٩٤٥، كما نجح الامريكان تحت قيادة جنرال الطيران (لوماي) في القيام باكبر غارة من هذا الضرب، على مدينة طوكيو في الشهر التالي (آذار)، وذلك عندما أحرقت نيران جهنمية ستة عشر ميلاً

مربعاً داخل المدينة وقتلت ثمانين الفاً من سكانها .

وهكذا .. أودت الحرب العالمية الثانية بحياة (٨٠) مليون نسمة ... منهم (٢٠) مليون سوفيتي أي عشر السكان و(٥) ملايين بولوني .. ونفس الرقم من الالمان والبقية حصة الشعوب الأخرىٰ !!

وعندما أُلقيت اول قنبلة ذرية صنعها الانسان علىٰ مدينتي هيروشيما وناكازاكي ، احترق أكثر من ربع مليون انسان وتشوّه آلاف البشر من هذا العالم !!

في الحرب الكورية التي استمرت من عام ١٩٥٠ الىٰ عام ١٩٥٣ بلغ عدد أطنان القنابل التي أستخدمت فيها حداً يفوق ما استخدمه الحلفاء من القنابل في المحيط الهادي إبان الحرب العالمية الثانية . كما أن عدد الدبابات التي استخدمت في عدوان الكيان الصهيوني علىٰ مصر عام ١٩٦٧ فاق عدد الدبابات التي استخدمها الالمان والايطاليون والحلفاء في معركة العلمين التي نشبت في غضون عام ١٩٤٢ واستمرت ١٢ يوماً .

وقد استمرت حرب فيتنام لمدة تزيد عن أحد عشر عاماً وبلغت هي الأخرىٰ من العنف والشراسة حداً لم يعهده التاريخ وإن كانت لم تتوفر حتىٰ الآن الإحصاءات الرسمية لعدد ضحايا تلك الحرب ، وخاصة من الجانب الفيتنامي .

فقد قامت القوات الامريكية بارتكاب جرائم حرب ، لا مراء في وصفها بأنها رهيبة ، ذكرتها المصادر الامريكية في الكونغرس في نيسان ١٩٧٥ ، وأكدت ان الولايات المتحدة استخدمت قنابل على المدن الفيتنامية لها من القوة التدميرية ما يعادل الف قنبلة ذرية من قنبلة هيروشيما . ويكفي أن نشير الىٰ أن مذبحة « ماي لاي » التي ارتكبتها القوات الامريكية هناك ، كانت مجرد عينة ، ومما يثير الدهشة فعلاً ، ان الملازم الذي اهتم بتلك المذبحة ، كمجرم حرب ، حكم عليه بعقوبة بسيطة ثم عُفي عنه بناء على

احتجاج الرأي العام الامريكي الذي اعتبر غالبيته الضابط الامريكي بطلاً قومياً وطنيا !!

ويلاحظ أنه في حرب تشرين لعام ١٩٧٣ إستخدم الجانبان العربي والصهيوني أسلحة تقليدية حديثة أشد فتكاً ودماراً مما كان معروفاً من قبل. وقد بلغ عدد الدبابات التي اشتركت في هذه الحرب في جبهة سيناء وحدها اكثر من ثلاثة آلاف دبابة وهو رقم لم تعهده حرب سابقة على جبهة واحدة، أو لاحقة الا الحرب العراقية ـ الايرانية التي وقف فيها العراق يدافع عن أرضه، ويصحح الاوهام المريضة لدى الحكم الايراني، ويعطي العالم الاسلامي درساً في ان الدين الاسلامي كان وما يزال وسيدوم ديناً للأخوّة والسلام والجيرة الحسنة.

وفي لبنان، جرت حرب أهلية طاحنة، راح فيها آلاف الضحايا، ودمر بسببها قطر عربي حبيب. ويكفي أن نشير الى أن جريمة تل الزعتر قد قاربت في بعض وحشيتها ما تمّ ارتكابه من فظائع في هيروشيما وفيتنام، إن لم نقل انها قد تعدّتها. ويرتكب الكيان الصهيوني يومياً جرائم قتل بحق الشعب الفلسطيني بعدما سلبه أرضه.

في مواقع أخرى، أحرقت الحروب مدناً وأكلت خيراتها وقتلت شعوبها. لكن الإنسان لم يرعوِ، فما أن تضع حربٌ أوزارها، حتى يعود الى حمأة حرب أخرى، بأسلحة رهيبة. فيغرق في بحار من الدماء والدموع والمآسي، نتيجة ابادة عشرات الملايين من البشر محاربين ومدنيين ونساء واطفالاً وعجزة ممن لم يكن لهم أي دور في المعركة. فيعود الإنسان يبحث عن السلامة، ليرتمي في احضانها ويلتمس فيها السلوى والعزاء ويلوذ برحابها ينشد إجابة على تساؤلاته عن الحرب بعد أن نكبته ويلاتها.. ترى لماذا الحرب؟

يطلق الانسان هذا السؤال على نفسه، او على غيره كلما هاجت الخواطر او دار نقاش، ثم ينتهي الى حالة من الحيرة وعدم الاقتناع بما يلقي امامه

او ما يعثر عليه هو من حيثيات ومبررات.. فالإنسان مع كل تلك الحروب وبما حصدته من ويلات، لم يكن من النوع الذي لا يهتز ولا يتأثر ولم يكن ذلك الوحش المجرد من إنسانيته.

وقد يكون من غير الميسور، استقصاء جميع اسباب الحروب. فأسبابها متنوعة ومتجددة، ولا يمكن لنا معرفة حقيقتها او تعيينها الا بالرجوع الى مظاهر الحياة الانسانية التي توفر لنا دوافع القتال بين البشر، او الى علم الاجتماع الذي قد يفسر لنا طبيعة التجمعات الإنسانية وتطورها وما يكتنف تلك التجمعات من عوامل التنافس الاقتصادي والسياسي، والى علم التاريخ الذي يسجل لنا مراحل ظهور الامم والدول وتطورها ونشأة القوات المسلحة وتقدم أسلحتها وما طرأ على ذلك من أسباب النمو وتأثير ذلك على النظريات السياسية وعلى الحياة الانسانية ذاتها.

إن الحرب مستنقع الاجرام وهي في جوهرها ضد القيم الإنسانية والحياة، لأنها مبعث الدمار وسبب اليتم والثكل. ولذلك فهي بهذا المعنى لا يمكن أن تكون انسانية حتى ولو كانت مشروعة ودفاعية. فمشروعياتها صفة قانونية واخلاقية أما آثارها فواقع ملموس وأليم. ومع ان هذا القول، وكما هو واضح، منطلق من الزاوية الانسانية الصرف، فلا يمكن والحالة هذه أن يفسر أنه نهيٌ عن ممارسة الدفاع المشروع(*) أو ردع العدوان او حروب التحرير ضد المغتصبين العتاة ما دامت الحلول السلمية لم تكفل استرجاع الحقوق المغتصبة او رد الاعتداء الأثيم.

والواقع إن إغفال الحقوق الإنسانية في الحرية والسلم والمساواة والعدالة ومعاملتها بازدراء ومغايظة، كان على مدى العصور التاريخية كلها، احد الاسباب المحتومة للحروب والثورات. فالصراع ضد البغي والطغيان والاستعمار والتمييز العنصري والعدوان أمر قديم هو الآخر قِدمَ ذلك

(*) تُجيز المادة ٥١ من ميثاق الامم المتحدة حق الدفاع المشروع.

الصراع. ولم يكن ذلك مقصوراً علىٰ عنصر دون آخر أو علىٰ مجتمع حضاري دون مجتمع حضاري آخر. إذ يبدو أنه صوت البشرية الصارخ في ذلك الخضم المائج. وما كان إغفاله قط الا علىٰ حساب تعريض أمن مُغفليه للخطر. ولقد كان اعلان حقوق الانسان بمثابة ادراك هذه الحقيقة، كما كان تحذيراً بأن إغفال حقوق الانسان وحرمة الوطن وسيادة الشعب وإزدراءها إنما يُفضي الىٰ الثورة والتمرد ويُعرقل تنمية وتطوير العلاقات الودّية بين الشعوب.

وقد نُثير الدهشة، عندما نورد هذا المعنىٰ الذي يؤكِد علىٰ أن صاحب المشكلة عندما يشعر، فقط، أنه يعاني من مشكلة فقد اجتاز نصف الطريق الىٰ حلّها. وما أيسر أن يجتاز النصف الثاني منه عندما يرتسم أمامه المنهج ويتضح لعينيه ضياء الحق.

ولقد إستهلت شعوب الأمم المتحدة ميثاقها بالاعلان عن تصميمها علىٰ انقاذ الأجيال القادمة من شبح الحرب. إذ لا يجوز بموجب ميثاق الامم المتحدة (م ٢ ف ٤) استخدام القوة او التهديد بها خلاف اهداف المنظمة الدولية كما ان نظرية الأمن الجماعي التي تمثلها روح ونص الفصل السابع من الميثاق تسمح باستخدام القوة الدولية لردع المعتدي وحسب. فكيف تُراهم فاعلين بفصول الميثاق وفقراته، والىٰ ايّ حدٍ من الجدّية لتطبيقها هم سائرون؟

ان القوة Force، ليست شيئاً مجرداً، يكون او لا يكون. انما القوة مجموعة عناصر، ربما يغيب بعضها فيؤثر علىٰ سائرها كالموقع الجغرافي مثلًا او الثراء. إنها عناصر هامة في تركيب «القوة» ولكنها بمفردها قد تنقلب الى عوامل ضعف، كأن تصبح الدولة الفتية او ذات الموقع الهام مطمعاً للآخرين ومصدراً لإثارة شهية القوىٰ الخارجية ضدها.

ثم ان هناك عواملَ أُخرى تدخل في مفهوم القوة.. فالصين مثلًا، دولة متخلفة مثل دول العالم الثالث اذا اخذنا في الحساب مستوىٰ المعيشة ودخل الفرد وغير ذلك. ولكن مجرد أنها دولة تضم اكثر من الف مليون

نسمة يجعل لها هيبة خاصة وخطراً خاصاً، ولو كان خطراً مستقبلًا وليس آنياً، ولكنه يدخل بالتأكيد في كل حساب.. وها هي اليوم خامس دولة كبرى لها حق النقض (الڤيتو) وعضوية دائمة في مجلس الأمن الدولي.

ومما لا شك فيه ان التقدم العلمي الهائل وانعكاسه على قدرة القوة العسكرية، قد قلّل من قيمة «العدد» ورفع من قيمة «النوع». أي نوع الاسلحة التي في يد الجنود ومدى كفاءة وتدريب اولئك الجنود ونوع المعنويات التي يحملونها. كما هو الحال في تجربة العراق في حربه الدفاعية ضد ايران.

ففضائل الجيوش في الحروب القديمة، حروب السيف والرمح، من شجاعة وحماسة وكثرة عدد، قد انحسرت - وإن لم تغب تماماً - وحلّت محلها فضائل أخرى هي درجة التعليم ودرجة إستيعاب الاسلحة الحديثة والتحكم فيها وقوّة النيران لا قوة الافراد.

وليس مصادفة أن نجد ان «القوتين الكبريين» امريكا وروسيا كلتيهما تتجمع لهما اكبر درجة من عناصر القوة سالفة الذكر:

العدد الكبير [٢٢٠ مليون امريكا - ٢٥٠ مليون روسيا] والقوة الانتاجية الهائلة وتوفر معظم المعادن الخام المطلوبة للصناعة داخل أراضيهما (حديد - فحم - بترول... الخ). فهما ليستا مثل اليابان او المانيا اللتين هزمتاهما، الى جانب اسباب اخرى منها ندرة البترول المستورد كله من الخارج.

فالمانيا مثلًا خسرت حربين عالميتين لأنها كانت معزولة في اوروبا. ولأنها في الحربين لم تتمكن من كسب تضامن حلفاء مهمين معها.

وانجلترا، بالمقابل، هزمت نابليون، ثم هزمت الأمبراطور غليوم ثم هزمت هتلر، لأنها كانت دائماً لا تخوض حرباً بمفردها قط، انما تخوض حروبها دائماً مع حلفاء. وكما قال رئيس وزرائها ونستون تشرشل عندما

أمكنه التحالف مع أعدى اعدائه الاتحاد السوڤياتي خلال الحرب، من أنه مستعد « للتحالف مع الشيطان » لكسب الحرب. كان ذلك دائماً هو شعار الامبراطورية في اوج مجدها وقبل زوال شمسها.

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها وأنقشعت عن البشرية غيوم حرب ساخنة رهيبة اطلت عليها حرب أخرى مجدداً هي الحرب الباردة، أي سياسة حرب المعارك الدبلوماسية والعراك السياسي وتصعيد التوتر الدولي حتى يصل الى حافة الحروب النووية الساخنة. وقد حبك هذه السياسة، جون فوستر دالاس وزير الشؤون الخارجية Foreign Affairs الامريكية السابق. وكثيراً ما وضعت هذه السياسة العالم على شفير الهاوية وتخوم الهلاك. ومع اطلالة عام ١٩٦٩ غربت بصورة جديدة هي سياسة الانفراج أو الوفاق الدولي التي حاك خيوطها ونسج خطتها الاساسية هنري كيسنجر وزير الخارجية الامريكية السابق.

وقوام هذه السياسة تخفيف التوتر الدولي، وعمادها الابتعاد عن حافة الحرب الساخنة بين الدول الكبرى. (هذا لا يعني استبعاد الحروب السريعة بين الحين والآخر بين الدول الصغيرة).

لكن سياسة الوفاق لم تولد بقراءة فنجان، بل إن بذورها الاولى زرعت في عهد تشرشل الذي سعى الى تحقيق نوع من الانفراج في العلاقات بين بريطانيا والاتحاد السوڤياتي في عام ١٩٥٥.

وبعد موت ستالين، بدأ مالنكوف يبدي ردود فعل إيجابية تجاه هذه السياسة. فقد أذاع السوڤيات في عهده أنهم توّاقون الى نزع لسلاح عام وشامل.

ومع مجيء خروتشوف، بلغت القناعة درجة اكبر نحو الانفراج الدولي، إذ حمل خروتشوف حملة اعلاميّة واسعة للإشهار بافكاره والطعن بنوايا الولايات المتحدة. فما كان على الاخيرة الا أن تقدمت بأطروحة كان الطرفان يدركان أنها ولدت ميتة.. فقمة خروتشوف وأيزنهاور وما تلاها

من مساجلات كلامية حول التفتيش والرقابة على الأبحاث الذرية لم تكن إلا إشارة خضراء لتطوير تلك الابحاث والتأكيد على أن « الماراتون » التسليحي لا زال مستمراً حتى أمدٍ بعيد.

وحين مسقط خروتشوف في عام ١٩٦٤، إعتقد الكثيرون ان حكم وريثيه بريجنيف وكوسيجين سيكون قصيراً، أو مجرد فاصل في التطور السياسي للمجتمع السوفياتي. والبعض قال؛ ان هذا الحكم لن يكون سوى نسخة وسيطة وغير مهمة عن حقبة خروتشوف نفسه. ولكني استطيع القول ان هذا العهد قد كشف عن وجود قيادة لامعة، وان تقييمي العام لها، هو بأية حال، ايجابي.

وعلى مدى ٤٠ عاماً كان العالم خاضعاً « لميزان رعب » مستقر بين الدولتين العظميين وعلى الرغم من اندلاع « حروب صغيرة » ونزاعات مسلحة في العالم الثالث، الا أن ذلك لم يتسبب في اندلاع حرب عالمية ثالثة، نظراً لأنه كان واضحاً للجميع بأن هذه الحرب ستؤدي الى الدمار الشامل. بيد أن هذا الرادع النووي كان بحاجة الى عدة مئات من الصواريخ النووية وليس لترسانة رهيبة تكفي لتحويل الكرة الارضية الى رمادٍ تذروه الرياح!

ويذكر ان المبادئ الاساسية للاستراتيجية الراهنة طرحت للمرة الاولى في عام ١٩٦٢ حينما اقترح وزير الدفاع Defence الامريكي الاسبق « روبرت مَكنَمارا » ما سمّي باستراتجية القوة المضادة التي ارتكزت على المفهوم القائل بأنه في حالة فشل « الردع » النووي تصبح الاستراتيجية النووية مشابهة للعمليات العسكرية التقليدية من حيث ان غايتها الاساسية هي تدمير القوات العسكرية للطرف المقابل.

أوضح « مكنمارا » أفكاره بشأن استخدام الأسلحة النوويّة عند التعرض لهجوم نووي، على النحو التالي:

* الرد بهجمة شاملة واحدة.

* الرد لتقليص آثار التدمير عن طريق الهجوم على الطرف المقابل وتدمير قواعده لمنعه من شن هجوم ثانٍ.

* استخدام القوات النووية كسلاح للتفاوض وانهاء النزاع.

الحق ان تطور استراتيجية الردع بين الدولتين الكُبريين شهد انعطافات حادة. فبعدما كانت الولايات المتحدة تتمتع باحتكارها القدرة التدميرية ومارست الردع النووي، كان في ذلك الوقت، في وسع السوفيات ردع خصمهم بوسائلهم التقليدية الكفوءة، ثم امتلكوا قدرتهم النووية التدميرية. فأصبح السباق بينهما شديداً في مضمار تعزيز القدرات الدفاعية النووية. وفي ذات الوقت حرصت الدولتان على تأطير تلك القدرات بفكر استراتيجي ترسّخ مع الزمن وعبر الاحداث الجسيمة (الحرب الكورية، الحرب الباردة، أزمة برلين، أزمة الصواريخ الكوبية) فأضحى عقيدة استراتيجية.

ودون الرجوع، ابداً، الى تلك الحقبة - الستينات - للتنقيب عن الوشائج التي تربط العقيدة والمصالح الاقليمية، فالواضح تماماً، ان الفكر العسكري للدول العظمى كان، في الواقع، فكراً لا يشير من قريب او بعيد بأنه يعي حتى ضرورة هذا الرجوع، او حتى وجود ظاهرة كهذه. وانه حتى ونحن نتعامل مع الفكر العسكري لهما على اعتباره عقيدة، فإنه لا يعدو كونه نظريات تخدم، في النهاية، المصالح الاقليمية للدولتين العظميين.

وبهذا الخصوص، قال «باري. ر. بوش» في كتاباته (مصادر العقيدة العسكرية The Sources of Military Doctrine) ونشرته؛ دار صحافة جامعة كورتيل-نيويورك-١٩٨٤. وهو يقع في ٢٨٣ صفحة. يقول بوش؛ ان نظرية توازن القوى تصف العقيدة بأنها استجابة الظروف الدولية التي من شأنها أن توجه العقيدة نحو الدفاع او الردع، التكامل والانسجام مع السياسة والإبداع.

اذن تبقى القضية، مذبوحة بعلامة استفهام؛ هل العقيدة العسكرية لخدمة الدفاع أم أن الدفاع والردع النووي هما لخدمة العقيدة؟

هذه الناحية، كانت مهمة جداً في تاريخ الفكر الانساني الىٰ درجة دعت كثيرين من مؤرخي هذا الفكر الىٰ القول بأن تقدم هذا الفكر يعود اولاً الىٰ الاسئلة المهمة التي يطرحها وليس الىٰ الاجوبة التي كان يقدمها.

ولقد كتب (رومان كولكوويكس ونايل جويك) المحرران في دار صحافة (ويست فيوركولومبيا) في عام ١٩٨٤، كتاباً ركزا فيه، علىٰ حقيقة مفادها، أنه في الوقت الذي يناقش فيه الدبلوماسيون مسألة السيطرة علىٰ الأسلحة والتوصل الىٰ اتفاق يضمن الحدّ من سباق التسلح تواصل حكوماتهم انتاج المزيد من الاسلحة التي تهدد السلم والاستقرار العالميين وتعرقل الجهود الدبلوماسية من تحقيق اهدافها. ولا يعتقد محرّرا الكتاب ان إنتاج أو شراء وتجميع المزيد من الأسلحة الحديثة تحت ذريعة الحفاظ على الأمن الوطني، لا تؤدي الىٰ تحقيق السلم العالمي ولا تعزز الاستقرار الدولي.

لقد تطورت، بعد ذلك، فكرة «القوة المضادة» الىٰ مبدأ التدمير المؤكد الذي يركز علىٰ إمتلاك قدرة تدمير الطرف المقابل كمجتمع حيويّ حتىٰ بعد قيامه بشن هجوم مُفاجيء. وقد رست القوتان منذ الستينات عند مصداقية أطروحة الردع بقابلية الدمار الاكيد المتبادل، الذي يرتكز علىٰ فكرة بسيطة هي حيازة عدد من الرؤوس النووية القادرة علىٰ النجاة من التدمير من الضربة الاولىٰ، كي يتم استخدامها في تدمير اهداف مدنيّة (صناعية وسكانية) في الطرف المقابل. وبقي التركيز علىٰ هذا المبدأ شرطاً من شروط قياس فاعلية القوات الاستراتيجية الامريكية والروسية لفترة طويلة من الزمن. وعمدت المخططات الامريكية بموجبه الى استهداف مراكز عسكرية ومدنيّة معاً في سبيل تحقيق التدمير، بدرجة «تدمير الطرف المقابل كمجتمع حيوي». أي ان منطق الردع بقابلية الدمار الأكيد المتبادل يقتضي أن في وسع كل طرف من المعادلة الثنائية ان ينتقم لنفسه من خصمه في كون ان احدهما قد إختار تنفيذ التعرض

النووي، وبفضل قابليّة الانتقام هذه يحجم كل طرف من اتخاذ سياسات غير مقبولة كلياً من قبل خصمه. ومع تطور القابلية التعرّضيّة النووية وانحسار دور القابلية الدفاعية النووية فإن الوضع قد إستقر عند قابلية الدمار الأكيد المتبادل وهي ان استراتيجية الحفاظ على قابلية شن الهجوم راجحة على قابلية الدفاع الإيجابي الأكيد. ولانجاز هذا الغرض هنالك مسلكان رئيسيان، أولهما أن تنشط وتتطور قابلية التعرض كماً ونوعاً. وثانيهما، ان يتجنب كل طرف بناء ترس دفاعي استراتيجي يُؤمن له سلامة حرمة السكاني والحيوي كافة. أو كما هو حاصل الآن، أن يجمع بين الأمرين بقدر معلوم على أن يغلب التعرض على الدفاع. والحكمة الاستراتيجية في ذلك، الا يضحى احد الاطراف مالكاً لقابليات تمنحه تفوّقاً أما على مستوى التعرض او الدفاع، لأن في الامتناع عن التفوق سر الإستقرار في التوازن. ويحدث الاضطراب في التوازن بسبب التفوق جراء تفكيرين. الاول هو أنّ الطرف المنجز للتفوق سيندفع أمام حادث استثمار الفرصة الجديدة، وقد تكون فريدة، فيشن تعرضاً مباغتاً، فيه فُجاءة مذهلة للخصم، وذلك لأنه على بيّنة، وكذا خصمه، بأن انتقام خصمه، حتى وإن أُتيحت له فرص الانتقام، لن يكون عنيفاً، فهو لا ريب انتقام مشلول.

والتفكير الثاني، هو أن الطرف المتراجع عن التفوّق سيجد نفسه تحت حادث تلافي تفوّق غريمه فيستنجد بقابليات تسديد الهجوم الأول المباغت مطمئناً الى منافع المفاجأة والمبادأة. اذ من دون ريب ان خصمه وإن كان متفوّقاً لن ينتقم منه بكل قابلياته، اذ أضحت بعد هجومه عليه معطوبة.

وحينما توّلت ادارة (ريتشارد نيكسون R. Nixon) شؤون السلطة في اواخر الستينات، بدأت الولايات المتحدة بدراسة الخيارات التي من شأنها توفير البدائل الاستراتيجية القادرة على منح ما يعرف «بالمرونة» في تنفيذ الهجوم النووي المعاكس دون اللجوء الى تدمير المراكز المدنية والصناعية في الطرف المقابل.

واجريت تلك الدراسات في الوقت الذي بدأت القوتان العظميان محادثاتهما التي أدت الى التوصل الى اتفاقيات « سالت ـ ١ SALT-I » وقد وقعت عام ١٩٧٢ . وهي تتضمن السماح لكلا الجبارين بنظام صاروخي مضاد مكوّن من مئة صاروخ من هذا النوع، إضافة الى مئة من المعدات التابعة لها تتمركز حول عاصمتي البلدين وكذلك الصواريخ العابرة للقارات، كما تمّ تحديد اجهزة الرادار وعدد الصواريخ المضادة للصواريخ المُعادية. وباختصار فقد ركزت (SALT-I) على تسليم الدولتين العظميين بمبدأ الردع القائم على فكرة (التدمير المؤكد المتبادل) لم تكن خالية من الجوانب السلبية من حيث عدم قابليتها على التكيّف مع التطورات التكنولوجية السريعة في ترسانة القوات الاستراتيجية السوفياتية.

وفي اعقاب توقيع اتفاقيات (سالت ـ ١) أدّت تلك النظرية الى القيام بمراجعة شاملة للاستراتيّجية النووية بإيعاز من وزير الدفاع الاسبق في ادارة ريتشارد نيكسون « ملفين ليرد » ولكن نتائج تلك المراجعة لم تنشر الا في عام ١٩٧٥ حينما كان « جيمس شليسنجر » وزيراً للدفاع. ولذلك أصبحت أهم العناصر التي تضمنتها تلك المراجعة تعرف بـ « مبدأ شليسنجر » وهي :ـ

أولاً : اشارت نتائج الدراسات الى أهمية ما يُعرف بـ « ضبط التهديد » والمقصود بذلك ان الهدف الأول، في حالة فشل الردع واندلاع الحرب النووية، هو التأثير على درجة القوة النووية المستخدمة وذلك لتقليص الأضرار الناجمة عنها. أما الهدف الثاني فهو محاولة انهاء النزاع على نحوٍ سريع وبنتائج مُرضيّة.

ثانياً : ضرورة الاحتفاظ بما يُعرف بـ « القوة الإحتياطية الثابتة » والمقصود بذلك توفير قوات إضافية لا تستخدم في مراحل الهجوم الاولى، وإنما يتم الاحتفاظ بها لإستخدامها في التأثير على سير المفاوضات. ولكي تؤدي تلك « القوة الإحتياطية » وظيفتها بشكل مؤثر، ينبغي عدم

تعرضها للتدمير حيث أن وجودها يمنح الطرف المقابل حافزاً قوياً لإيقاف الحرب.

ثالثاً: في حالة عدم التمكن من «ضبط التصعيد» ينبغي استخدام القوات التي لم تتعرض للتدمير في «عرقلة إعادة البناء» في الطرف المقابل.

الا إن تلك المراجعة الشاملة تعرضت لانتقادات بعض الخبراء في الشؤون الاستراتيجية، وتوصلت تلك الإنتقادات الى نتيجة مفادها أنّ بإمكان الاتحاد السوفياتي تحقيق الانتصار عند خوض الحرب النووية.

وبينما أشارت الدراسات والتحليلات التي تضمنتها المراجعة الى ان الجانب السوفياتي قد يسعى الى خوض حرب نووية قصيرة الأجل لتحقيق الإنتصار بأقل التكاليف فإن الخطط الاستراتيجية السوفياتية لم تهمل احتمال إمتداد الحرب لتصبح حرباً طويلة الأمد. ولقد أدى التفكير حول امكانية حدوث حرب نووية طويلة الامد الى إعادة النظر في فكرة «القوة الاحتياطية الثابتة» التي أُشير الى استخدامها في نزاع طويل بعد لجوء اي من الطرفين الى شن «الضربة الاولى» على الجانب الآخر.

وفي الفترة بين ١٩٧٥ - ١٩٧٨، وبينما كانت المفاوضات تجري على قدم وساق للتوصل الى اتفاقيات (سالت-٢ SALT-II) أجرت ادارة كارتر دراسات أخرى حول تفاصيل خوض الحرب النووية، وتميّزت تلك الدراسات بشموليتها من حيث معالجتها لكافة إحتمالات المجابهة النووية بما في ذلك استخدام القوات التقليدية والدفاع المدني.

وتجدر الإشارة الى انّ عملية «الوفاق» في تلك الفترة كانت قد وصلت أوجها من حيث التفاهم بين الجبارين على العديد من القضايا الدولية والتعاون الثنائي. وتمّ التوقيع على اتفاقيات (سالت-٢) في عام ١٩٧٩، الا ان احداث أفغانستان أدّت الى رفض الكونغرس ابرام تلك الاتفاقيات.

وهكذا بقيت (سالت ـ ٢) غير مبرمة، ووضعت على الرّف. وفي السنوات التي تولّت بها ادارة ريغان شؤون السلطة في الولايات المتحدة، أكدّت تصريحات القادة الامريكيين، بالتشدد الذي أدى الى عودة أجواء «الحرب الباردة Cold War».

ويعتقد خبراء الدفاع الامريكيين ان اتفاقيتي «سالت» الاولى والثانية لم تمنعا السوفيات من تخطي سالت في مجال الرادارات والصواريخ. واستمروا في تطوير منظومتهم المنصوبة حول موسكو، وكذلك طوّروا جهاز الليزر الأرضي المنصوب في «ساري شاغان» والذي يعمل ضد الأقمار الصناعية. وأعلن العديد من علماء الغرب، أن نظرية الردع المتمثلة في الدمار التام المتبادل بدأت تصبح أساساً بالغ الوهن للأمن الغربي في الوقت الذي تصبح فيه الأسلحة الذرّية أكثر دقة كما يصبح الدافع لكلا الجانبين بتوجيه الضربة النوويّة الاولى أكبر.

وغياب الأمن المطلق، سيكون بمثابة الحجر الاساس او بمثابة مسمار جحا في حركة القوتين ازاء بعضها البعض أو ازاء الدول الاخرى. ان التوجه صوب دول العالم الثالث له ضرورياته الأمنية للقوتين العظميين في حالة غياب الأمن المطلق. فالمخطط الأمني شامل ولا يغفل المنافع التي تدرّها الحقائق الجيوستراتيجية والاقتصادية والسياسية والدبلوماسية للعالم الثالث. فالحرص على الاستعمار بالمزايا الايجابية لبعض أقاليم العالم الثالث يؤول الى محاولة القوتين، تطويق دول هذا الإقليم أو ذاك بشبكة من الأحلاف العسكرية الثنائية والجماعية او السعي لنيل بعض التسهيلات والقواعد العسكرية التي تخدم الاغراض الأمنية للأطراف الكبرى في معادلة التحالف.

ففي كل عصر من عصور الزمان بوجه عام وفي عصرنا الحاضر بوجه خاص، لا يمكن القول بأن ما يجري بين الدول الكبرى يخصّها وحدها وان العلاقات القائمة بينها تعنيها دون غيرها. فسياسات هذه الدول

واستراتيجياتها تتركُ مباسمها على أقدار الدول الصغيرة ومصائرها، وتطبع بصماتها على مصالحها بدرجات متفاوتة. وفي الماضي البعيد لم يكن هذا النفوذ بمثل قوته اليوم. فقد برز الآن بالإضافة الى التفوّق الكمّي تفوق نوعي هائل تمتاز به الدول الكبرى ويتجلى في التقدم العلمي والتكنولوجي وتطور الاسلحة النووية.

لقد كانت المراحل الاولى من استراتيجية الردع بدءًا من استراتيجية الردع بالحصر الى الانتقام الشامل المباشر الى الردع المرن الى الانتقام بالقابلية التدميرية الاكيدة المتبادلة، كشفاً واضحاً للعلاقة ما بين الردع ودول العالم الثالث. فعندما كان الأمن غير مؤكد في ظل الحرب الباردة ما بين عام ١٩٤٥ ـ عام ١٩٦١ كان السعي وراء كسب اكبر عدد من دول العالم الثالث في إطار الأمن الكوني للدولتين الكبريين حثيثاً. بل توتّرت السياسة الدولية بسبب هذا السباق المحموم. ولعل إنبعاث حركة عدم الإنحياز التي تضم دول العالم الثالث، كان في شكل من الأشكال رد فعل مباشراً لهذه الحقيقة. فكانت في بعض فحواها نزعة للتحرر من صفد الأحلاف التي نسجت في الشرق الاوسط وآسيا وامريكا اللاتينية.

ومع استقرار الأمن الدولي عند اطروحة الردع بقابلية الدمار الأكيد، لاحت بوادر استرخاء القبضة الشديدة للطرف الرئيسي في الاحلاف. وذلك على جهتين: احداهما، داخل المعسكر العقيدي المتماثل الأغراض. اذ تمردت الصين على الاتحاد السوفياتي واختارت العداء بعد القطيعة. وفي المقابل نفرت فرنسا من الولايات المتحدة في عهد ديغول وتململت اوروبا معها. في حين أعربت دول حركة عدم الانحياز عن اصرارها لتجنب الارتماء في شراك الأحلاف. كما أن من كان حليفاً قانعاً أضحى يُطالب بانعتاق جزئي.. واتضّح ان من مصلحة الحليف الرئيسي وانصاره ان يقيموا علاقتهم الأمنية على صعيد جديد. فالأحلاف مدعاة لعدم الاستقرار لا العكس الصحيح. انها تؤجج الوعي الوطني والاستقلال.

وهكذا حصلت العديد من الدول على حريتها السياسية والاقتصادية، وألغيت العديد من الاحلاف والقواعد العسكرية.

إنه في غياب أيه اتفاقية شاملة بين القوتين العظميين حول سباق التسلح، توسعت ترسانات الاسلحة الاستراتيجية في كلا الجانبين. وانتهت بمبادرة الدفاع الاستراتيجي أو (حرب النجوم) التي اعلنها الرئيس الأمريكي رونالد ريغان في ١٩٨٣ والتي اضافت بعداً جديداً على قضايا التسلح الإستراتيجي وذلك بالاتجاه نحو تطوير ونشر الأسلحة الفضائية المتطورة.

الترسانة
النووية العالمية

يشير تقرير وكالة المخابرات الامريكية الى أن الانفاق الدفاعي السوفياتي يتراوح بين ١ -١٣ في المئة من اجمالي الناتج القومي السوفياتي في عام ١٩٧٠ . وأنه ينمو بمعدل سنوي يتراوح بين ٤ -٥ في المئة سنوياً في المتوسط. ويتم تخصيص جزء متزايد من اجمالي الناتج القومي للاتحاد السوفياتي، الى الاستثمار . حيث بلغت هذه النسبة ٣٣ في المئة عام ١٩٨٠ ، مقابل ١٤ في المئة عام ١٩٥٠ . مع توجيه نسبة أقل الى مجال الاستهلاك حيث خصص له ٥٤ في المئة في عام ١٩٨٠ ، مقابل ٦٠ في المئة في عام ١٩٥٠ .

ومن كتاب القوة العسكرية السوفياتية الذي أصدرته رئاسة الاركان المشتركة في الجيش الامريكي وقدم له واينبرغر ظهر ان القوات السوفياتية قد حصلت خلال الفترة ١٩٧٧ -١٩٨٣ على (١٥٠٠) صاروخ باليستي (ذاتي الحركة) عابر للقارات وأكثر (١٣٠٠) صاروخ باليستي يطلق من الغواصات وحوالي (١٥) الف دبابة جديدة اضافة الى السفن والغواصات التي تسير بالطاقة النووية وتحمل صواريخ باليستية.

بينما أضافت الولايات المتحدة لترسانتها (١٣٥) صاروخاً باليستياً عابراً للقارات من نوع بيرشنغ و (٣٩٠) صاروخاً باليستياً عابراً للقارات من طراز كروز و (٣٠٠) طائرة مقاتلة و (٥٠٠) دبابة (١٠٦) سفن

حربية. وهذه المعلومات (الأمريكية) لا يمكن أن تكون دقيقة جداً بل هي تحمل في طياتها محاولات الإيحاء الصريح بالتفوق السوڤياتي وضرورة مواجهته.

حيث تصر الادارة الجديدة لحكومة ريغان على زيادة ما يتحمله الامريكيون من كلفة باهظة في ماكينة إنتاج اسلحة الدمار تحت شعار عودة الهيبة والقوة لأمريكا في العالم. ففي ترمومتر البيانات التي تعكس حصاد السياسة الإقتصادية الريغانية أو ما يطلق عليها Reaganomics ، نجد أن الإنفاق على التسليح قد بلغ في موازنة عام ١٩٨١ بمقدار ١٥٩,٨ مليار دولار وهو ما يوازي أكثر من ضعفي ونصف حجم العجز بالموازنة الفيدرالية البالغ ٥٧,٩ مليار دولار.

اما في موازنة عام ١٩٨٢ فقد ارتفع رقم الانفاق على التسليح الى ١٨٧,٥ مليار دولار، وهو ما يمثل تقريباً ضعفي حجم العجز في هذه السنة، والذي يقترب عن ١٠٠ مليار دولار. أما في موازنة عام ١٩٨٣ فمن المتوقع أن يرتفع هذا النوع من الإنفاق على التسليح الى ٢٢١,١ مليار دولار، أي ما يشكل ضعفي ونصف حجم العجز الكلي المتوقع لهذه السنة والذي وصل الى ٩١,٥ مليار دولار!!

والدلالة العامة التي تُشير اليها هذه الارقام، هي أن أي تخفيض تحدثه الإدارة الامريكية الجديدة في الإنفاق على التسليح فمن الممكن أن يحسن كثيراً في وضع العجز بالموازنة الفيدرالية.

ويشير التقرير السنوي الذي أعدّه المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ان الابحاث المتعلقة بتطور السلاح النووي تسير بسرعة مذهلة لدى الجانبين السوڤياتي والأمريكي. وتأمل العظميان ان تضعا في الخدمة، في الاعوام القليلة المقبلة، انظمة جديدة في نفس الوقت تُحسّنا فيه اسلحتهما لفترة السبعينات والثمانينات.

وكشفت دراسة أُجريت لإعادة تقويم التوازن النووي الاستراتيجي بين

الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي، ان هناك زيادة تقدّر بحوالي ١٠٪ في عدد الرؤوس النووية الامريكية في مدة ثلاث سنوات مقابل زيادة تصل الى ٣٧٪ في الجانب السوڤياتي للوقوف على قدم المساواة تقريباً مع الولايات المتحدة في هذا المجال..

وعلى مدى الاربعين عاماً الأخيرة كانت الترسانة النووية الامريكية في حال من التطور المتواصل والتكالب المسعور حتى أصبحت بفضل الجهد والمثابرة تنتج كميات متضاعفة من الاسلحة الفتاكة. وتتنوع في تصميم وسائل القتل الشنيعة. هذا الى جانب اعادة النظر في تحديد الأهداف والدقة المتزايدة في إصابتها.

ولئن حدث في الماضي وان وقعت معظم القنابل خارج الاهداف بأميال أو كان من المقدر لها أن تصيب شيئاً ما عند إتباع منهج الغارات المستمرة الذي عاون على تركيز القصف من الجو خاصة اذا زُودت القنابل بفيوزات Fuses فتؤدي الى حدوث الأنفجار عقب إصابة الهدف ببرهةٍ من الزمن حتى يعمل على تقويض البناء من أساسه. ثم اذا كانت الاسلحة في المخططات الاولى ـ في الخمسينات موجهة الى مركز مدينة موسكو، فإنها الآن قد بلغت درجة من الدقة أضحى من الممكن معها إستهداف مبنى وزارة الخارجية السوڤياتية مثلا، او المدخل الرئيس لمخبأ ذرّيّ مفرد لكبار المسؤولين «بالجوسپلان» Gosplan وهو الوكالة المركزية للتخطيط الإقتصادي بالاتحاد السوڤياتي، أو نقطة تضم ثلاثة اهداف او أكثر ـ كمصنع أسلحة ومحطة كهربائية ومكتب محلي للبوليس السري «كي-جي-بي» KGB- تدخل في نطاق الدائرة المهلكة لرأس نووي واحد. وكلما زاد عدد الاسلحة أصبحت الأهداف عرضة للإنقسام، فالنقاط المستهدفة كان عددها يفوق دائماً عدد الاسلحة المتيسّرة لمهاجمتها. خذ مثلًا المشكلة التي تواجه المخططين الذين يريدون شل حركة السكك الحديدية السوڤياتية ذلك أنه اذا ما وجد تحت تصرفهم عدد محدود من

الاسلحة للإضطلاع بالمهمة فإنهم سيقصرون أهدافهم على الأفنية الكُبرى لتحويلات السكك الحديدية. أما اذا وجد تحت تصرفهم العديد من الاسلحة فإنهم سيضيفون الى اهدافهم مصانع انتاج القاطرات وأماكن صيانتها. أخيراً فإنه اذا توّفرت اعداد اكبر من الاسلحة فسيقصفون ايضاً الكباري الصُغرى، والخطوط الجانبية الذاهبة الى الريف الروسي، ومكاتب التلغراف، ومصانع قضبان السكك الحديدية، ومكتب الأجور المركزي لعمال السكك الحديدية.

كل هذه الاشياء سيجري ضمّها الى القائمة اذا ما توفرت الاسلحة. والسعي متواصل لتوفير أكبر عدد وأجود نوع منها، لغاية في نفوس العلماء والقادرين الامريكيين. وذات مرة سأل عالم الكيمياء الحيوية بجامعة هارفارد Harvard وهو بول دوتي P. Dotty، والذي عمل ردحاً من الزمن مستشاراً للشؤون المتعلقة بالدفاع، سأل المخططين عن أصغر هدف يرد في قائمتهم متعلقاً بالاتحاد السوڤياتي. فكان الرد أنه حقل مكشوف قد يصلح كمهبط لحاملات القنابل السوڤياتية القافلة من مصمّمها.. أليس ذلك من الفظاعة بمكان أنه يبدو خيالياً بعيد المنال؟

هذا وقد واصلت الولايات المتحدة في عام ١٩٨٤-١٩٨٥ سحبها للصواريخ القديمة من طراز (تيتان) من قواتها الاستراتيجية وتستعد دوماً لاستبدالها بصواريخ من طراز (أم. أكس). وقد أدى سحب هذه الصواريخ الى تقليص عدد الصواريخ الموجهة العابرة للقارات الى (١٠٢٦) في الاول من تموز عام ١٩٨٥ مقابل (١٠٣٧) صاروخاً في العام الذي سبقه.

ومن المؤمل أن تجري التجارب الاولى على ثمانية واربعين صاروخاً عابراً للقارات من طراز (أم. أكس) في شهر كانون الأول من عام ١٩٨٦. وينسحب التحديث في القوات النووية الاستراتيجية الامريكية كذلك على الغواصات وبخاصة بعد دخول غواصتين جديدتين من نوع

أوهايو للخدمة. وفي الاول من تموز عام ١٩٨٥ وقبل وصول الغواصة السابعة من الطراز المذكور كان عدد الصواريخ الموجّهة التي تحملها الغواصات قد ارتفع الى (٦٤٠) صاروخاً أي بزيادة قدرها ثمانية وأربعون صاروخاً مقارنةً بالعام الماضي.

الاتحاد السوفياتي من جانبه يمتلك ١٣٩٨ صاروخاً موجهاً عابراً للقارات وسيتم استبدال صواريخ (إس. اس ١١ و١٣) بصواريخ أكثر تطوراً من طراز (إس-اس ٢٥) وهو صاروخ متحرك لا يزال قيد التجربة. أما الصاروخ (اس. اس ٢٤) فسيتم نشره قريباً حيث سيتم وضعه في البداية داخل سايلوات ومن ثم يركب على قاذفات متحركة تسير على السكك الحديدية.

وقدر تعلق الامر بالغواصات النووية يمتلك الاتحاد السوفياتي في الوقت الحاضر غواصة نووية ثالثة من طراز «تايغون» وكل واحدة من هذه الغواصات تحمل عشرين صاروخاً من طراز (اس. اس ٢٠).

يحمل الواحد منها ثلاثة رؤوس نووية، حيث تمتلك روسيا ٢٤٠ صاروخاً من هذا الطراز. وأخيراً فإن القاذفات الاستراتيجية مزودة الآن بصواريخ عابرة للقارات طراز (أي. اس ١٥٠) التي يصل مداها الى (٣٠٠٠ كم) وقد نصبت على خمس وعشرين قاذفة من نوع توبوليف.

وقد يجد نفرٌ من الملأ أملًا، عندما يقرأ عن عملية احراق صواريخ نووية عتيقة من طراز (تيتان) الامريكية أو (أس. أس. ١١) واستبدالها بالأخرى. ان ذلك الأمل لا يعدو كونه الهرب من الرمضاء الى النار.. فأيّ مدنيّة تلك التي تقتل أميرها العتيد، في حين أن وليدها الجديد سفاح كبير؟!.

غير خاف على الملأ، أن هذه القوة التدميرية الهائلة التي تمتلكها كل من الدولتين العظميين كفيلة بتدمير مدن وسكان نصف الكرة الشمالي على الأقل، وأنها لكفيلة كذلك بتلويث جو الكرة الأرضية كلهُ، فكأنه

إنتحار جماعي لسكان الارض جميعاً.

فأنت، أيها القارئ، اذا لم تستطع أن تُطفئ عوداً من الثقاب على متر عن فمك بنفخة قويّة واحدة، فكيف تريد أن تطفئ ناراً ولهيباً وإشعاعاً وانفجاراً لا تعرف الى ايّ حدٍ يكون مداه؟

وكيف، إذن، بتوقف التسليح العالمي، في وقت ظلت نسبة الانفاق على التسليح في الولايات المتحدة تتراوح ما بين ٧,٨ ـ ٨,٩ ـ ٩,٨ ٪ من الناتج الاجتماعي الاجمالي البالغ أكثر من ٧٠٠ مليار دولار!.

ومع ان هذا النوع من الانفاق الحربي اصطدم في النهاية بمتطلبات النمو والإستقرار الإقتصاديين، ذلك انّ ارتفاع هذا النوع من الإنفاق خصوصاً إثناء طرح برنامج حرب النجوم قد أدى الى تزايد العجز بالموازنة العامة وارتفاع الأعباء الضريبية وزيادة معدلات التضخم. وبينما كانت الحكومة الامريكية تخصص عشرات المليارات من الدولارات كان الكونغرس الامريكي يعقد الكثير من المناقشات ويثير العديد من الاعتراضات بخصوص نفقات أقل بمئات المرات لتوجه لأغراض الخدمات الصحية والتعليم والضمان الإجتماعي.. ولكن زيادة الإنفاق على التسلح العسكري قد وجه ضربة قوية للإجراءات المرتبطة بسياسات النمو المستقر.

وهكذا.. يستمر السباق المحموم.. وكم يتمنى كل منهما أن يمتلك أموالًا طائلة جداً ليصرفها على هذا السباق... ولكنهما في الواقع شعرا بخيبة أمل، لأن الجرار لم تكن مليئة بالذهب، وأن الشعب يريد أن يأكل...

ان الانفاق العسكري يأتي على حساب الاقتصاد الوطني طبعاً.. هذه ملاحظة عامة.. بل أن التسابق على التسلح النووي وتطوير القدرة العسكرية الفضائية يهدد خطط وبرامج انقاذ الاقتصاد السوفياتي الموضوعة للسنوات العشرين المقبلة. بل ان هناك من يقول ان برنامج ريغان لحرب النجوم قد أطلق العنان لحوار بين الصفْوة السوفياتية الحاكمة.. بين منادٍ لضبط

الجهاز الاقتصادي كأولوية وطنية وبالتالي فإنه يُحبِّذ التفاوض بدل التسابق، والآخر، يضع هدف التسابق كأولوية وطنية لكنه يودّ أن تترطب الاجواء بين موسكو وواشنطن كي لا تضطر موسكو للمجازفة ببرامجها الإقتصادية.

إن روسيا لا تقل في ثرائها عن أمريكا، حيث يضم دولابها الف ثوب، ولكنها لا تملك حنوّها وسعة قلبها المُفعم بالرأسمالية الحرة!! ان ادعاءها واضح الـمُخاتلة، ما تروّجه من أن قلبها (على طفلٍ لها بجانب الجدار لا يملك الرغيف) ليس الا شعاراً كاذباً تؤكد به على سيرها في طريق التسليح وإشباع المشاجب المفتوحة والمخازن العديدة.. في حين أن ادارة ريغان تزيد الضرائب، كي تغطي نفقات مشروع ريغان عن حرب النجوم.

تقنية الفضاء
والأقمار الصناعية

ومما لا ريب فيه ان الولوج الى عالم تقنية حرب الفضاء هو تعبير حي عن المرحلة المتقدمة التي بلغتها المكننة الصناعية العسكرية الامريكية. وان اعتماد هذه الغاية والإستباق اليها سيمكن الولايات المتحدة من الإنفراد بمنزلة متقدمة على غيرها من القوى النووية باستثناء الاتحاد السوفياتي.

حتى بداية الستينات، كانت سفن الابحاث تجوب البحار والمحيطات وتقيس تياراتها ورياحها ولم يكن الى ذلك الحين، أية معدات الكترونية دقيقة يستفاد منها لهذا الغرض. وكان ضباط القوات المسلحة يتبعون طرق الملاحة الفلكية والادوات الحسابية الثابتة والمقاييس التقليدية. وكانت أية رؤية للارض أو لأية ظاهرة قاصرة في تلك المساحة الواسعة.

ونتيجة لثورة الحاسبات الالكترونية والالكترونيات وتقدم طرق القياس بواسطة الأقمار الصناعية، تحرر المختصون من هذا القصور على متن سفن الابحاث البحرية والجوية والبرية.

لقد ظهرت التوابع العسكرية في الولايات المتحدة وكذلك في الاتحاد السوفياتي في بداية الستينات، وكان هناك تسابق حثيث ومثابر في تطوير مجالات المواصلات البعيدة ومهام الاشتطلاع للبلدين. لذلك أصبحت توابع الفضاء في الواقع، من الأمور التي لا بد منها بالنسبة للاستراتيجية

العسكرية لكلا القوتين العظميين. وكانت توابع الاستطلاع التصويري كاملة توازن مهم في سباق التسلح.

وضمن مختلف الإهتمامات العسكرية في مجال الفضاء يعتبر الإستطلاع ذا أهمية كبيرة، حيث أن الأقمار الصناعية تزود المحطات الأرضية بالصور التي كانت الصورة التفسيرية المكسوفة والمعروفة والمتطابقة. ومن أجل معالجة تقرير المعلومات المهمة يستوجب أن تكون المعلومات المجمعة كثيرة ووافية. لقد اجتازت مرحلة الرصد عبر الفضاء، حدود تقاليد الميدان التطبيقية في مجال الصورة التفسيرية شروح المعلومات المكتسبة على صورة جوية. ويتجه الرصد الجوي حالياً نحو تقديم رؤية اجمالية ومفصلة في نفس الوقت الى سطح الأرض.

لقد ظهر الاهتمام بتحليل (مع الأخذ بنظر الاعتبار قدرة الأقمار الصناعية واللاقطات) امكانيات الرصد للاغراض العسكرية وكذلك التحديد بدقة ما يتضمنه التصوير الفضائي في «الصورة التفسيرية».

والسؤال الذي يتبادر الى العقول، هو لماذا لا تسقط الاقمار الصناعية التي يصنعها الإنسان على الأرض؟

في الواقع أن جذب جو الأرض هو الذي يخلق هذا الإختلاف. فنحن نفكر إعتيادياً وطبيعياً في الأقمار الضناعية على أنها تدور جيداً في ما وراء حدود غلافنا الجوي. وهذا الأمر صحيح بالنسبة لبعض الأقمار الصناعية.

أما الاقمار الصناعية التي تدور في المدار الذي يضمن دوران الأقمار الصناعية حول الأرض خلال يوم واحد بالضبط ثم بالتالي الحوم فوق الموقع نفسه طول الوقت، فهي تقع على ارتفاع (٢٢,٠٠٠) ميل، وهذا يعني أنها تقع، حقاً، في الفضاء الخارجي، غير أنه بالنسبة للعديد من الأقمار الصناعية كما هو الحال بالنسبة للمركبات الفضائية وباقي المركبات التي يصنعها الإنسان، تعتبر المدارات منخفضة بشكل أكبر من الإرتفاع السابق.

إن الأقمار الصناعية ذات التصميم البسيط « أكثر من ٣٠ م » والمجهزة بمجسات بصرية تكون مخصصة للكشف اللاسلكي بالإضافة الى أنه يمكن استخدامها ولكن على نطاق ضيق للأغراض العسكرية وتسمح هذه الأقمار بإجراء توضيح للخرائط (Maps) ذات السلسلة الصغيرة، وكذلك توضيح المناطق غير الخاضعة للرسم بالخرائط. وتتم هذه العملية بطريقة سريعة حيث يحدد موضع العديد من مديّات الأهداف واحداثياتها أو تثبيت المعلومات المستلة عن طريق مصادر اخرى.

أما الاقمار المجهزة برادار ذي هوائيات جانبية، وغير الخاضعة لتأثيرات الغيوم وضوء الشمس، فتعتبر من نوع الأقمار ذات التصميم البسيط. تستخدم هذه الأقمار لدراسة الظواهر الجيولوجية والخضامة « علم المحيطات والاوقيانوسات » والجلادة « علم المجالد ومواقعها وتأثيراتها » حيث تعمل بما فيه الكفاية من اجل كشف المنشآت البحرية ومتابعة تحركاتها وكذلك البحث عن القنوات الضيقة Narrow Channel في مناطق القطبين الشمالي والجنوبي.

في حين تكون الأقمار الصناعية ذات التصميم المتوسط من (١٠) الى (٣٠) متراً، مجهزة بمجسات بصرية ومخصصة للكشف اللاسلكي ويفضل استخدامها في المناطق الاوروبية بسبب قدرتها التحليلية للارض.

من جهة اخرى، اثبتت التطبيقات المتعلقة بالخرائط الاقتصادية - السوقيّة المذكورة عن قابلية هذه الاقمار في نقل المعلومات عن المنشآت المهمة وكذلك مساعدة إنشاء بنوك المعطيات من خلال إبتكار طرق عددية للارض تكون مخصصة للاسلحة الجديدة، ومنها على سبيل المثال الصواريخ العابرة للقارات ومنظومات الملاحة.

اما بالنسبة للأقمار الصناعية ذات التصميم العالي « أقل من (١٠) الى ١ متر » فإنها تعتبر اقماراً صناعية عسكرية مخصصة للاستطلاع حيث تعمل المتحسسات التي تحملها بالمجال البصري. ففي أيام السلم تقوم هذه الاقمار

بتخمين القدرة السوقية للبلد بالاضافة الى مراقبة اتفاقات نزع السلاح. وبوسع هذه الاقمار ان تكشف مطارات او مخازن تحت الارض لحفظ الصواريخ بالإضافة الى ذلك فإنها تقوم بمراقبة مصانع الاسلحة ومذاخر العتاد. وفي الاوقات الحرجة تعلم هذه الاقمار السلطات عن كل ما يحدث عن اصدار إشارات الانذار والنشاطات غير الطبيعية على سطح الارض وتحركات وتمركز القطعات وتجحفلها وتعزيزاتها. ان طلب المعلومات التفصيلية للأهداف المهمة جداً، وخاصة في الازمات العصبية الطارئة والتي تستحق المتابعة عن قرب هو من اختصاص الاقمار الصناعية ذات التصميم العالي.

ففي السابق، ولانه ليس هناك حدود ثابتة بين المجال الجوي والفضاء، لذا كانت القوة الجوية مسؤولة عن الدفاع الوطني دون تحديد الإرتفاع. ولكن مكوك الفضاء الامريكي -كولومبيا- قد فتح صفحة جديدة في أستخدام الفضاء.

لقد أظهر طيران المكوك، بالرغم من العطل الذي اصابه وأدى الى قطع رحلة طيرانه الثانية، أنه بالاضافة لكونه طائرة متكاملة فهو يتمتع بخاصيّة تغير سرعته بشكل يصبح فيه خارج نطاق إمكانية أية طائرة مطاردة له.

ولأول مرة، منذ بداية مغامرات الفضاء تقوم وزارة الدفاع الامريكية بالمساهمة بشكل رسمي واسع في عمليات إطلاق مركبات الفضاء التي تمّ تطويرها من قبل الادارة المدنية (إدارة الجو والفضاء الوطنية). وقد صرح ناطق باسم وزارة الدفاع موّضحاً؛ انَّ قوتنا في الفضاء هي نوع من الإمتداد الطبيعي لقواتنا الجويّة في المجالات الضروريّة لحماية امكانياتنا الدفاعية في البحر والبر والجو وما وراء الغلاف الجوي.

لا محيص، اذن، للمراجع العسكرية من الاهتمام بأمر الفضاء.. وفي الحقيقة، فإن المراجع تلك، لم تكن متأخرة في الإنتباه الى كيفية المساهمة

في البرنامج. بل تجاوزت في الواقع في سعيها الدؤوب الى الحصول على الحق في الاستفادة وبشكل تام من مكوك الفضاء والتقدم بما يعادل عشر سنوات على بقية أقطار العالم في مجال تطبيقات الدفاع في الفضاء في الوقت الذي يكون فيه السوفيات في حالة الاضطراب بسبب إفتقارهم للتقدم في مجال الالكترونيات وأساليب معالجة المعلومات.

وأكد الامريكان اعتقادهم بأن الاستجابة المرنة والسريعة لا زالت غير متيسّرة في منظومات دفاع الفضاء التابعة لهم. ولكن الآن وبسبب مجيء مكوك الفضاء، فبأقل من عشرِ دقائق بعد اطلاق هذا المكوك يصبح تابعاً فعالًا ذات قابلية فائقة وقادراً على الحركة بأيّ اتجاه بواسطة قوته الخاصة به.

ان (المرحلة العليا) التي توصل التابع الى ارتفاعه النهائي والتي صممت من قبل منظومة المستقبل الأمريكية للنقل في الفضاء التابعة لوزارة الدفاع والتي أسست بناء على الطلب المقدم من قبل الرئيس ريتشارد نيكسون ـ وقد قامت شركة (بونيك) بانشاء (المرحلة العليا) بموجب عقد أبزم مع وزارة الدفاع.

ان منظومة المستقبل اطلقت أول اطلاق تمَّ اختباره في نهاية عام ١٩٥٢.. وسوف تكون تلك المنظومة بوضع جيد جداً في ١٩٨٨ أو ١٩٨٩. وذلك لأنه سيكون بالإمكان استخدامها لعدة مرات وهي تعرف باسم (زلّاقة الفضاء) التي ستعمل بمثابة (عبارة أو ممر) بين المدارات المؤدية الى مكوك الفضاء والمدارات الأعلى، لغرض التنسيق في المعلومات وتصليح وتصحيح توابع المنظومة الأخرى.

ولقد دلت الابحاث على ان المنظومات التي ظهرت أهميتها بشكل واضح في قاعدة (كيب كندي) ومن أهمها منظومة (فاكماستر غلوبال بوزيستاتك سيستم) والتي تتألف من اسطول يحتوي على ثمانية عشر تابعاً فضائياً تدور في مدارات ارتفاعها (٢٠ و٢٠٠) كيلو متر. يقوم كل تابع

من هذه التوابع ببث معلومات عن موقعه المضبوط والوقت بشكل مستمر وسوف يكون لدى الوحدات الفعالة في البر والجو والبحر أجهزة استلام منظمة على موجة هذه التوابع.

وحالما ستكون المنظومة فعالة من كافة الوجوه في نهاية الثمانينات ستكون هي الرد على كل صعوبات توجيه القصف في الاجواء الرديئة او الظلام. بالاضافة إلى ذلك يجري الآن صنع أجهزة إستلام تمكن الغواصات من الدخول الى الموضع قبل إطلاق الصواريخ.

وعندما تكون أولى عينة للجيل الجديد من توابع الفضاء للإتصالات البعيدة للأغراض العسكرية قد أطلقت فعلًا مع اجهزتها الجديثة الكفوءة بواسطة صواريخ تقليدية سيكون واجب مكوك الفضاء هو وضع بقية اسطول توابع الفضاء في مداراتها. وسيكون عدد هذه التوابع الواقعة في المدارات هو عشرة توابع في نهاية عقد الثمانينات.

ان تلك العينة من التوابع التي تتوالى مراقبة التغيرات الجوية ستقوم بتأمين معلومات جيدة للقوات البرية والبحرية والجوية. وهي ليست معلومات دقيقة فقط، بل بامكانها بيان اماكن العواصف والأعاصير بكل دقة وكذلك التقلبات الجوية الخطرة الأخرى، حتى أنها تقوم بتحديد طبقات الغيوم بشكل مجسم.

انه لأمر مذهل، أن تتقدم التقنية المتطورة للاسلحة الخاصة بالفضاء بسرعة فائقة. ويكفينا أن نعرف انّ بامكان مركبة الفضاء (كولومبيا) الطيران بسرعة (٢٨,٠٠٠) كيلومتر في الساعة خارج الغلاف الجوي بارتفاع مقداره (١٢٠) كيلومتراً. ولها القابلية الكبيرة على نقل ما زنته ٣٠ طناً الى المدار الواطئ.

إضافة الى الخدمات المشتركة اثناء عمل المكوك التي تجري جنباً الى جنب بين وزارة الدفاع وادارة الجو والفضاء الوطنية، الا ان هناك العديد من المشاريع التي قدمتها وزارة الدفاع التي يتضح منها أنها سوف تكون

عمليات مستقلة. وقد أعلن عن اكمال قاعدة الإطلاق الخاصة باطلاق المكوك في قاعدة (ڤاترتيرك) في كاليفورنيا، هذه القاعدة التي أطلقت منها كافة توابع الفضاء التي تدور في قطبية او قريبة من القطب، والخاصة بمراقبة ورصد الأرض. اضافة الى الأقمار الصناعية العلمية، مثل مكوك الفضاء (آتلانتيك) الذي أطلقه مركز الابحاث بـ (هيوستن). وهو يساعد على انتاج الدواء الثوري الذي يساعد من يعانون من فقر الدم على انتاج كريات الدم الحمراء. كما أن له تطبيقات تجارية هامة في مجال البصريات الالكترونية والبحوث الزراعية المتعلقة بنمو النباتات وبذور الحبوب واختصاصات علمية اخرى لا مجال لذكرها فذلك بعيد عن موضوعنا.

لقد كشفت وزارة الدفاع في سنة ١٩٨٣ بأنها شرعت في بناء مركز سيطرة على الفضاء في مدينة (كولورادو)، وهو ذو خط مباشر يربط قيادات الدفاع العليا لغرض الاتصال بالقيادة والسيطرة في كافة مهام الفضاء العسكرية. ومن المفروض ان يفتتح العمل فيه عام ١٩٨٦ وسيحتوي على (١٨٠٠) شخص من مختلف الاختصاصات.

والتزاماً بموضوعية توقعات المستقبل، نشير الى أنه في عام ١٩٩٠ سوف يصبح عمل مكوك الفضاء عملاً إعتيادياً على الاغلب شبيهاً بجدول إقلاع طائرات الركاب وستكون ادارة الجو والفضاء الوطنية هي المساهمة بثلث الاربعمائة طَيْرَة المخطط اجرائها من الآن ولغاية عام ١٩٩٠. وقد تقدم السلطات العسكرية حينذاك باستخدام المركبة (كولومبيا) لأنواع اخرى من المهام.

ومع ان وزارة الدفاع، كثيراً ما تفضل الالتزام بالصمت تجاه هذا الموضوع، الا أن المراقبين غالباً ما يتفقون بالإجماع على ان الغاية الاساسية المستشفة من وجود منظومة نقل الفضاء الأمريكية هي لاغراض الاستطلاع العسكري ولإقامة قواعد فضائية للتنسيق الاستراتيجي، ذلك التنسيق الذي سوف لن يتمكن العدو بأي حالٍ من الاحوال، بلوغ مستواه.

هكذا إذن تتطور التقنية العسكرية للحروب. ما أريد طرحه بشيء من التمحيض الدقيق هو التسليم مطلقاً بأن نمط التقنية تلك في تطور مستمر ولم يبق كما هو دون تعديل. ولقد غدا جلياً لنا الآن انَّ المنجزات التقنية التي ما زالت اليوم تخلب الالباب بجرأة الطرح والتنفيذ، ستنسحب إن عاجلًا أم آجلًا، امام منجزات أكثر حداثة. وتشهد الحياة ميلاداً جديداً لحياة جديدة في ظروف مستجدة وعلى مستوى حديث ايضاً للحضارة البشرية.

فلقد أصبحت تقنية الحاسبات الالكترونية اليوم عنصراً حيوياً في العمليات الإنتاجية والاحصائية والبحث العلمي، كما أصبحت عنصراً حيوياً في منظومات الأسلحة المعاصرة والمستقبلية ذات الآفاق الواسعة. ولا شك ان المعرفة الراسخة والمهارة في استخدام تقنية الحاسبات الالكترونية Technical of Electronic Computer من قبل الضباط في تشكيلات الجيوش الحديثة صارتا عاملًا هاماً من عوامل رفع القدرة القتالية للقطعات. فأمام لوحة الحاسب الالكتروني، جلس ضباط يديرون معركة ويحاولون تسييرها ويتابعون موقف قطعاتها. وعلى الشاشات ترتسم أعمدة من الارقام والجدران ومقاطع ونصوص توضح تفصيلياً تغير الوضع نتيجة تحقيق القرار المتخذ وكذلك ردود فعل «العدو». وتعطي المعلومات المثبتة بواسطة طابع الحاسب صورة وافية لما يجري. وعن طريق تلك المعلومات يستطيع الانسان المشرف عليها ان يتسلم شتى احتمالات القرار ويقارنها ويقيّم فاعلية وتأثير الاجراءات المناسبة. وبالتالي تتوفر لديه المعطيات اللازمة لاتخاذ القرار. حتى إن تلك الاجهزة الالكترونية الاستشارية المبنيّة على اساس انظمة المعلومات المنطقية، تستطيع ان تأخذ على عاتقها جزءًا من الوظائف ذات الطابع الابداعي في عملية اتخاذ القرار.

إن قيادة القوات في ظروف الحرب الحديثة لا يمكن تصوّرها بدون استخدام واسع لتقنية الحاسبات الالكترونية واجراء شتى انواع الحسابات.. لدرجة يمكن القول معها أنه يصعب جداً تثمين دور الحاسبات الالكترونية في هذا المجال.

لقاءات القمة
والأمل المفقود

في التاسع عشر والعشرين من شهر نوڤمبر الماضي، اجتمع « الخرتيت » الامريكي و « الدب » الروسي في « قمة جنيف » وجهاً.. لوجه!

هذه المرة يمثل « الخرتيت » الامريكي، الكاوبوي الشهير الذي يدعى رونالد ريغان R. Reagan . وهو فنان حاذق صعب المراس كان كل ذنبه، ان زهوّهُ بنجوميته، أوحى اليه انّ في وسعه أن يتّخذ الى جانبه زوجة.. فعقد الزواج على السياسة مع بقائه عشيقاً للفن الهوليودي.

بينما يمثل « الدب » الروسي ميخائيل غورباتشيف M. Gorbachev الذي يعتبر من الزعماء السوڤيات « الشباب » بعد جيل خروشوف وبريجنيف واندروپوف وتشرنينكو، الذين يُعتبرون من « الحرس القديم ». وهو روسي موسكوفي. وهو كان في الثانية عشرة من عمره عندما شنت المانيا النازية الحرب على الاتحاد السوڤياتي. وفي العشرين عند موت ستالين، وكان ما يزال طالباً في سنته الاخيرة من كلية الحقوق في جامعة موسكو، عندما إنتشرت موسيقى « الروك آند رول » بين الشباب السوڤياتي، وربما كان ممّن مارسها واستمتع بها.

ولعله من المناسب التّلميح هنا الى أنّ طقساً عالمياً حسناً شاع في بعض الاوقات، كلما تحسن الطقس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوڤياتي عكس ذلك فإنه مع كل توتر في العلاقات بينهما، يتسع نطاق سباق التسلح

في العالم وترفع دول العالم من ميزانيّتها العسكرية. حتى ترى العالم قد ابتسم عندما إتفق الزعيان، وهبطت اسعار السلاح في بورصة السوق السوداء لبيع الاسلحة. ثم تجهّم بعدما وجّه غورباتشوف تحذيراً للعالم الغربي وعادت للسوق السوداء عافيتها وانتعاشها.

وبحكم العادة، فإن اجتهادات المحللين السياسيين تتعدّد وتتنوّع، كلما إقترب موعد « القمة العالمية » لكنها بحكم العادة ايضاً تتمركز حول محور جوهري او اكثر. على الرغم من إنتهائها منذ فترة وجيزة.

لربما يحلو للبعض عقد مقارنات تاريخية بين قمة عام ١٩٨٥ وقمم العملاقين السابقة..! والتي التقط خيطها الاول الرئيس الثاني والثلاثين للولايات المتحدة الامريكية فرانكلين روزفلت؛ بحيث يمكن ايجازها كما يلي:

* مؤتمر طهران في (١ كانون الأول ١٩٤٣) مؤتمر طهران بين روزفلت وجوزيف ستالين بحضور ونستون تشرشل واتفقوا فيه على بعض العمليات العسكرية من بينها ادخال تركيا الحرب العالمية الثانية وناقشوا سياستهم تجاه المانيا عندما يتحقق لهم النصر. اذ كان روزفلت قد إقترح تقسيم المانيا الى خمس دول يتمتع كل منها بحكم ذاتي.

* مؤتمر يالطا في ٤ - ١١ شباط ١٩٤٥ في منتجع يالطا الروسي الواقع على الشاطئ الشرقي للبحر الاسود.. تلك المدينة التي تقاوم أمواج البحر في اصرارها على البقاء. عقد المؤتمر بين روزفلت وستالين وتشرشل وبحثوا في الايام الثمانية مستقبل بولندا ودول شرق اوروبا وشروط السوفيات لدخول الحرب في المحيط الهادي ضد اليابان. وانتهى المؤتمر بوضع خريطة سياسية جديدة للعالم.

* وفي يوليو ١٩٤٥ اجتمع العمالقة ومعهم وزير الخارجية البريطانية « أنلي » في بوتسدام وبحثوا تفاصيل دخول السوفيات الحرب ضد اليابان وأصدروا بياناً طالبوا فيه اليابان بالاستسلام بلا قيد أو شرط والا دمروها

تدميراً كاملاً. وخلال هذا المؤتمر تلقى الرئيس الامريكي الذي تولّى السلطة بعد وفاة روزفلت وهو ترومان، تقريراً من واشنطن جاء فيه ان علماء امريكا توصّلوا لإنتاج قنبلة ذريّة.. وقام ترومان بإبلاغ ستالين بكلمات غامضة بأن امريكا بصدد انتاج سلاح مهوّل. فلقد كان لدى امريكا ثلاثة رؤوس ذرية ولم يكن لدى السوفيات أية قنابل من هذا النوع.

* وفي يوليو ١٩٥٥ اجتمع آيزنهاور وبولجانين وآيدن وفوربيه في جنيف وتقدم الرئيس الامريكي في اجتماعات القمة بمشروعه الذي عرف باسم «السماء المفتوحة» اي السماح لكل عملاق بالتجسس على المواقع العسكرية للعملاق الآخر باستخدام طائرات الاستطلاع حتى يطمئن كل عملاق لنوايا العملاق الآخر. وقد كان لدى امريكا ٢٢٥٠ رأساً نووية ولدى السوفيات ٣٤٠ رأساً نووية..

* ومع بداية سنة ١٩٥٩ بدأت اجتماعات العمالقة بين ايزنهاور ونيكيتا خروشوف في سبتمبر في كامب ديفيد. وقد كان لدى امريكا ١٢ الف رأس نووية ولدى الروس ١٨٥٠ رأساً نووية.

* وفي ٣ حزيران ١٩٦١ اجتمع كنيدي مع خروشوف في فيينا. وكان لدى الامريكان ٢٣ ألف رأس نووية ولدى الروس ٢٧٠٠ رأس نووية.

* وفي حزيران ١٩٦٧ إلتقى جونسون الذي أصبح رئيساً للولايات بعد موت كنيدي، باعتباره نائباً له مع اليكسي كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي في كلاسبورد في الولايات المتحدة لبحث نتائج حرب ٥ حزيران ١٩٦٧ والموقف في فيتنام الخ.

* في ٢٢ مايس ١٩٧٢ إجتمع نيكسون مع بريجنيف، وتم الإتفاق حول تحديد التسليح الاستراتيجي (سالت-١). وقد كان لدى الامريكان ٢٨ ألف و٥٠٠ رأس نووية ولدى الروس عشرة الآف رأس نووية.

* في ١٧ حزيران ١٩٧٣ اجتمع بريجنيف في الولايات المتحدة مع نيكسون وتم توقيع اتفاق منع الحرب النووية.

* وفي ٢٧ حزيران - ٣ تموز ١٩٧٤ إجتمع نيكسون في موسكو مع بريجنيف دون الوصول الى اتفاقات حول التسلح.

* وفي ٢٣-١١-١٩٧٥ التقى بريجنيف مع فورد بعد استقالة نيكسون إثر فضيحة (واترغيت) في فلاديڤوستوك وتم الاتفاق مبدئياً حول (سالت-٢).

* وفي ١٥ حزيران ١٩٧٩ التقى جيمي كارتر مع بريجنيف في ڤيينا وتم التوقيع على اتفاقيّة (سالت-٢). وهكذا.. فبعد كل اجتماع للحديث عن خفض الأسلحة.. تزداد الترسانة العسكرية ارتفاعاً.. وتلك هي ارقامهم. فأسرار العمالقة لا يعرفها غيرهم.. وهم لا يسمحون لأحد بالتدخل في شؤونهم، وقد عودونا على ذلك.

فلقد عقدت قمة بين نيكيتا خروتشوف Nikita Khruschev وكنيدي Kennedy في الستينات. وكان العالم يومها، يموج ويرتعد من الحرب الباردة التي تصاعدت حدتها بين القوتين.. ووقف فيها الجباران وجهاً لوجه، ولا أمل في ان يفكر أحد منهما في تحالف أو تهاون. وقد أضرمت نار الحرب الباردة، وأشعلتها مزاجية خروتشوف الأوكرانية الساخرة واستعراضية ونرجسية كنيدي الرصينة. فكانت النتيجة، أن اندلعت النار، نار الحرب، التي بدأت بمعركة طلقاتها الكلمات والعبارات والتنديدات.. ثم سارت الخطابات بينهما تزيد الأُوْرَ وتؤججه.

في تلك الحقبة من الستينات، كانت نغمة الايديولوجيا هي السائدة وكانت المادية الجدلية التاريخية تطغى على تصريحات خروتشوف، بينما كانت نزعة براغماتية بتنويعاتها السياسية تتحكم في خطابات كنيدي.

وإذا راق للبعض أن نعقد مقارنة مماثلة بين قمة بريجنيف ونيكسون في

بداية السبعينات والتي توّجت باتفاقية (سالت) الخاصة بنزع السلاح النووي بين العملاقين.

وفي السبعينات خفّت حدّة الحرب الباردة.. وتقلصت نغمة الايديولوجية، وبرزت نغمة المصالح الوطنية.

ثمة حقيقة لا بدّ من تأكيدها في مستهل هذا الكلام ـ قبل التطرق للقمة الأخيرة ـ وهي أنه على الرغم من ملايين العبارات والكلمات التي ترحب بموعد اللقاء، الا أنه يتمخض دائماً عن نتيجة مفادها؛ أريد أن أسمع موسيقى الحرب، أزيز الرصاص.. دوي المدافع. هكذا حال اللقاءات السالفة. لقد دخلت فيها مفاوضات نزع السلاح في متاهة فنية يترتب عليها مواقف سياسية محسوبة.. ولم نقطف من ذلك الجدل حتى يومنا هذا أيّ شيء من نزع سلاح شامل وعام وانما ارتضينا على مضض بقيود واهيّة على التسلح.

واذا كانت تلك هي النتيجة المستخلصة من مسوحات ومراجعات اللقاءات السابقة، فما هي خلفية الصورة البانورامية للقاء العملاقين هذه المرة؟

لجأ الطرفان الى الاستعراضية الدعائية المبطنة برذاذ الضخ الايديولوجي، لكن معطيات الثمانينات هي التي ستحكم ـ كما سنرى ـ في تفاصيل وجزئيات الصورة المشتركة!! ومن الذي يسرق الكاميرا عن الآخر.. ريغان أم غورباتشوف؟!

ومنذ الوهلة الاولى.. بدا للعالم ان ريغان يريد ان يعطي غورباتشوف درساً في النجومية وان يوجه له كلمة كاوبوية.. فقال لخصمه، الذي يتبادل معه التحايا والابتسامات، في سياق حديثه، عبارة «الطريق الصحيح» وهي العبارة التي قالها ريغان في ظهور الخمس دقائق العلني امام الصحافة مع الزعيم السوفياتي. وعندما لم يفقه الزعيم الأحمر فحوى العبارة.. تُرجمت له أن الرئيس القادم من البيت الأبيض على جواده الابيض يريد

ان تكون المعركة بيضاء.. وذلك هو الطريق الصحيح.. والّا..!!

طبعاً، لم تتطابق وجهات النظر. وبدون أن ننفث الإتهام بنيّات خبيثة، نقول ان كلا الطرفين له رأيه الذي قد يناقض ما للطرف الثاني من آراء. وكان هذا التناقض فاضحاً الى حدٍ حدى بغورباتشوف عدم الموافقة على الطريق الصحيح.. فراح ريغان يعبث بذقنه الحليق فترة.. ثم قال اخيراً «لعمري انها لفكرة!».

واستدعى ريغان مترجمه الخاص وهو يزمجر، وقال له «قل لقائد الكرملين! أنني أمهلك (...). أيّها الرّفيق غورباتشوف!!

ووجم المترجم برهة، بينما كانت أنظار الحضور مسلّطة عليه ما لبث أن ترنح في وقفته قليلًا، واراد أن يفتأ غيظ ريغان ويتقي نقمته.. فأحنى له رأسه، وهو يقول «سمعاً وطاعة..» ولكن ريغان الذي أطلق تلك الصيحة.. تدارك نفسه وعرف أنه كان على عجلة.... واذ ذاك.. اذ ذاك فقط، بدأت المفاوضات الرسمية السرية بين الزعيمين لوحدهما!!

وعاد الصراع، هذه المرة، بين نانسي ريغان، التي تزوجت ريغان بعد أن تَوَجَّهَ نحو السياسة.. لم تكن هوليودية، ولكنها كانت معروفة جداً.. فلقد عرّف ريغان نفسه مرةً قائلًا؛ أنا زوج نانسي!! ولكن شيئاً من مجدها الغابر لم يتبقَ لها. فقد ذوى جمالها، وزايلتها فطنتها وحضور بديهيتها وفتنتها الخلابة! وبين ريزا غورباتشوف المرأة الروسية التي تعرف مواسم الثلوج وضفاف نهر الفولكا.. الى حد التنافس.. ومن منهما ستسرق الكاميرات وتحتل الشاشات الناعمة؟.

حتى إن نانسي قالت لغينشر، أنها اذا اتفقت مع ريزا فستعقدان قمة نسائية في جنيف!! ولكن هل تمَّ اللقاء؟.

كل هذه الأسئلة محصورة في نطاق ما هو نسبي، وبالتالي فإن الإجابة عليها ستتم في نطاق النسبية هي الأخرى.

لكن جميع المحللين والمراقبين يتوقعون ان تكون «طبخة جنيف» في قمة العملاقين مختلفة المذاق والطعم من كل قممها السابقة..!.

باختصار...

فإن «الخرتيت» الأمريكي ما زال يلوّح على لسان ريغان بعسكرة الفضاء أو استراتيجية حرب النجوم. اذا يقول ريغان؛ ان البرنامج الذي سيكلف ٢٦ مليار دولار سيوفر للعالم، في يوم ما، بما في ذلك الاتحاد السوفياتي، اذا وافق عليه الكرملين، درعاً في الفضاء لا يمكن إختراقه. ولكن ما الذي يعنيه توصيف «حرب النجوم» أمام سيل الإجتهاد العلمي والتفسيرات التي تروّج لها الأجهزة الأمريكية لتزيد دهشة العالم وحيرته ورعبه؟ هل يعني تسخير الاجرام السماوية بقوى أرضية لتسقط كالصواعق المدمرة على الاقمار الصناعية المعادية المزروعة في الفضاء وعلى الأهداف الأرضية التي تنطلق منها آلة الحرب؟

أو أنها خطة Plan لتصنيع أقمار صناعية عسكرية كبيرة الحجم جداً مجهزة بأسلحة لم تعرفها البشرية مثل المدافع الكَهْـرَمِغنطيسيّـة التـي تستطيـع قذف قذائف Pyojectiles مدمرة بالغة السرعة؟.

أم أنها خطة لتصنيع أقمار صناعية للبيع، الى شركات أهلية تستغلها للسفر الى الفضاء والسياحة بين الممرات؟!!.

أما ثمن القمر الصناعي الواحد، ذي الغرض الواحد، فلا يزيد على ١,٥ مليون دولار.. والذي غرضهُ السفر، يختلف طبعاً عن ذاك الذي غرضه السياحة. أما رسم الإيجار المطلوب لحمل هذا القمر الصناعي الى الفضاء الخارجي فيتراوح بين ٣ـ٥ ملايين دولار. تلك هي التسعيرة التي اعلنتها مؤخراً، شركة خدمات الفضاء، Space Service Inc وهي شركة أهلية ـ ١٠٠٪، أسسها في تكساس قبل حين مموّلون طموحون من أصحاب الملايين وخبراء ومهندسون كانوا يعملون في وكالة الفضاء (ناسا). وهم يعلنون أن أسعارهم تلك متهاودة وقابلة للخصم والتخفيض،

بضمنها، تقديم القهوة البرازيلية في مكاتب الاستقبال الفخمة!.

لقد أثارت طروحات الرئيس ريغان جدلًا سياسياً بشأن فحوى استراتيجية الدفاع. فالرئيس الامريكي يريد تحقيق تقدم في مجال من دون أن يجعله مشروطاً بتقدم يتحقق في مجالات أخرى ومعه وزارة الدفاع والأغلبية من الكونغرس.

أما وزير الدفاع فيعبّر برأيه عن حرب النجوم، ويقول بصراحة بأن بلاده (تحاول تحويل الفضاء المحيط بالأرض الى ساحة لتلبية الاحتياجات العسكرية للولايات المتحدة). كما أنه يقول للسوفيات بأن (الأنظمة الدفاعية هي وسيلة افضل من الأسلحة الهجومية لردع الحرب). وهو يعتبر ان عدم التوصل الى اتفاق حول الاسلحة الفضائية لن يعطل التوصل الى اتفاق حول الاسلحة النووية.

أما «شولتز» من زاويته كوزير للخارجية الامريكية فانه يريد ان يترك الامور تسير معاً كي لا يغلق الباب. وهذا الرأي يعبر عنه رئيس الديبلوماسية الالمانية «غينشر» فلقد قال لزوجة ريغان في لقائه بها في فندق «والدورف آستوريا»: «يجب اتخاذ كل ما يلزم لعدم ضياع الفرصة في جنيف».

والأوروبيون، بالاضافة الى المانيا الغربية، ولا سيما فرنسا وبريطانيا متخوفون من تأثير برنامج حرب النجوم على قيمة اسلحتهم النووية. ولقد برز حتى الآن اختلاف بين موقفي بريطانيا وفرنسا من البرنامج عندما دعمت رئيسة الوزراء البريطانية «تاتشر» مضي واشنطن بالبحوث، بينما تحفظت فرنسا على البرنامج اجمع.

ولكن الرئيس الامريكي ووزير خارجيته ومستشاره يشددون على أن من جملة اغراضهم من الاطروحة الجديدة هو اقناع السوفيات بجدوى الردع بالدفاع. فكما يرى (ريتشارد لوكار) رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الامريكي، أن الاستراتيجية الجديدة ستعزز الردع الامريكي.

بالنسبة للموقف السوڤياتي، فقد جاء تبرير القمة مع نهج الانفراج الدولي الذي يلجم العدوانية الامريكية ويفتح الطريق امام شعوب العالم.. يضاف الى ذلك الاحساس العميق بعظم معاناة الدول الاشتراكية من جراء الإستنزاف الذي يسببه سباق التسلح وعلى الأخص بعد أن دخل مرحلة معقدة ومكلفة للغاية وصلت الى الفضاء. ولأن الهدف الامريكي كما هو معلن هو دفع السوفيات الى هذا السباق وبوتيرة عالية لعرقلة النمو الإقتصادي والإجتماعي في الدول الإشتراكية، فإنَّ حرص السوفيات على المبادرة الى التركيز على قضية التسلح له ما يبرره.

- ان الخطر النووي لم يعد خطراً موضعياً، بل أصبح، حتى البقاء في ظله، والتعايش معه في ما يسمى ميزان الرعب، خطراً.. ذلك أنه استنزاف متواصل وجنوني لطاقات كبيرة وخيالية.

عند هذه النقطة يبدو أن العملاقين السوفياتي والامريكي قد حملا الى القمة اهدافاً متناقضة. فالسوڤيات يودون الخلاص من هذا السباق المهلك الى حدٍ أصبح معه يُشاع بهمس ان السوڤيات يُحبذون مقايضة تخفيض نسبة الصواريخ الى ٥٠٪ مقابل وقف ابحاث برنامج حرب النجوم.. فلقد قال (أندريه غروميكو) في مؤتمره الصحفي في ١٣ كانون الثاني ١٩٨٥ حينما كان وزيراً للخارجية السوڤياتية، بأن السوڤيات على استعداد لتخفيض ماكنة التعرض الاستراتيجي مقابل العدول عن سياسة الدفاع الاستراتيجي.

ومن الواضح الجليّ أن الزعماء السوفيات يريدون البدء في مساومة على مستوى عالٍ بشأن الاسلحة النووية، وأغلب الظن أنهم يريدون حظر ما يسمونه استخدام الفضاء في الأغراض العسكرية، أو ما يسميه البعض الآخر «البرنامج الامريكي لنظام الدفاع الجوي للصواريخ بالفضاء».

وفقاً لما يراه السيد غورباتشوڤ فان مبادرة الدفاع الاستراتيجي سترغم كلًّا من الجانبين على استثمار مليارات الدولارات على انظمة دفاعية كاملة

في الفضاء واسلحة هجومية أكثر تطوراً لاختراق تلك الدفاعات. ويصرّ غورباتشوف على عدم امكانية التوصل الى أيّ اتفاق بشأن الحدّ من الاسلحة ما لم يتم التخلي عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي.

وسواء خضعت مبادرة الدفاع الاستراتيجية للمفاوضات ام لا، فإن هذه المسألة خيّمت على اجتماع القمة على شكل سحابة أكثر من كونها درعاً للسلام. وتشير بيانات سوفياتية بشكل ضمني الى أنه ليست هناك عدا ذاك الا موضوعات قليلة تستحق المناقشة!!

ويفهم من هذا، ان السوفيات يعصبون ثلاث قضايا استراتيجية برباط واحد وبعقدة واحدة تجمع كل القضايا الاخرى، وهي حرب الفضاء والأسلحة الاستراتيجية والاسلحة المتوسطة المدى. بينما لا يرى البيت الأبيض والبنتاغون ضرورة للربط بين هذه الأمور... بل الربط من عقدة واحدة وترك نهايات الاطراف الاخرى سائبة تخضع للمناقشة. وذلك لأن فرص الاتفاق بشأن الأمرين الآخرين اكبر بكثير من فرص الإتفاق حول حرب الفضاء التي ما تزال محض أطروحة. وهذا هو المنطق المعروف بالخيار المزدوج الذي يتمسك ببرنامج حرب النجوم، والمعنى الحقيقي له «اذا فشلت المفاوضات فسوف ننشر الصواريخ، واذا نجحت فسوف ننشر الصواريخ».

ومما سبق، نجد ان ريغان، كما يبدو، يشعر بما يسببه مشروعه الفضائي من ضيق وقلق للسوفيات فينوي استغلال هذه الوضعية للحصول على مكاسب مقابلة هي ايقاف الدعم السوفياتي لانتفاضات التحرر الوطني عسكرياً وإقتصادياً ضد الهيمنة الامريكية.. وهو يعتمد، كذلك، الى «خلط» مقاومة الارهاب وأعمال العنف على سطح الكرة الأرضية التي يتاجر فيها ريغان ويستعرض بأعمال القرصنة وخطف الطائرات عضلاته، مدفوعاً بـ «لوبيّات» الضغط الصهيوني وحواري الفلسفة البراغماتية.. ومن ثم فانه يفسر الإرهاب على هوى هذه اللوبيات الضاغطة.

ولكن، حينما يقول «سبيكس» الناطق الرسمي للبيت الأبيض بأن الادارة الامريكية لا ترى ما يبرر تعطيل السير في المفاوضات وتحقيق التقدم. فالدولتان لا تستطيعان التثبيت عما يجري في مجال البحث في منظومة حرب الفضاء، نجد ان «غروميكو» قد جارى هذا الرأي وأشار الى صعوبة التفاوض بشأن هذه المنظومة وأكد على تعذر السيطرة عليها، لكنه عاد فقال بأن المواضيع الثلاثية الأبعاد موضوعة واحدة معقدة لا تقبل التجزئة.

وهكذا.. لم تعط ملايين الكلمات التي صدرت عن موسكو وواشنطن في الاسابيع الأخيرة أي تلميح الى ان هناك تحوّلاً يحدث، سواء في التراجع عن البرنامج أو اقناع السوفيات.

فمع ان البرنامج الذي يكلف ٢٦ مليار دولار ليس مضمون النتيجة، وان هناك شكوكاً حول قابلية تطبيقه بالنتيجة المرجوة وبرغم شكوك المختصين والخبراء بذلك، الا أنه يبقى (وسواس) موسكو في المستقبل.

ولا يماري أحد في ان الشعوب طُراً، توجس خيفة من الاسلحة الذرية كلما حدجت في الارقام المذهلة، والإحصاءات الفظيعة ولقد شاءت الأقدار لهذين الرجلين أن يمثلا شعوب الارض قاطبة للتباحث حول كل القضايا التي تهم الإنسانية. ولكن البشرية قد بكت واختلج صوتها بالنشيج والدموع، وظهر على وجهها الذعر والقلق كأنها تغالب انفعالاً عاتياً حينما قرر السوفيات والأمريكان فرض تعتيم اعلامي على لقائهم في جنيف فبدوا عندها وكأنهم يتحركون في كوكب غير كوكب الأرض. اننا نريد ان نؤكد هنا، ان اكثر الناس الذين نقّبوا وفتشوا عن نقطة ضوء، خضراء تجلب الهدوء أم حمراء تثير الهلع، في بيان جنيف، هم سكان العالم الثالث. فهل حلّت هذه القمة كل المشاكل التي يكتوي بنارها العالم الثالث؟ أم بقيت شعوب هذا العالم لعبة خطرة يمارسها الكبار؟

فالذي لا شك فيه، ان لعبة الدول الكبرى تقتضي أن تجمع كل دولة

من الدولتين العظميين الاوراق الناجحة التي تحقق لها الفوز اذ بدأت عملية التفاوض، مع الإحتفاظ بهذه الاوراق حتى في حالة فشل المفاوضات والتي سيعقبها بالضرورة تصعيد المواجهة، واعتماد كل دولة على حشد وتنظيم أعوانها والمؤيدين لها في قارات العالم. فهذا يريد ولاء ثقة اكبر عدد من الدول بسياسته. والآخر يريد تأمين جبهته الاشتراكية التي تضم حلف وارسو. وفي نفس الوقت يسعى لجمع شمل الدول المؤيدة له أو التي تخشى تأثيره ونفوذه، مع تهدئة ومحاولة إحتواء الدول التي تعارضه.

وهكذا.. تبدو لقاءات القمة وكأنها اجازات للاستجمام والترفيه في جنيف Geneva وقد لا تكون جنيف موقع لقاءات ناجحة ولكنها تحوي شواطئ للمتعة والراحة.. وتضم قاعات تصلح لإلقاء المحاضرات وتنظيم المؤتمرات.

فلقد إضطجع الرئيس ريغان بعد أحد اللقاءات في مقعد وثير في قاعة ظليلة، مغمض العينين.. وعلى وجهه تعبير ينم عن إغتباط، وكأنه كان نائماً يبتسم في نومه وعبر مايكروفونات القاعة التي تحوي اعضاء الوفد الأمريكي فقط، دوّى صوت ريغان.. إنه ذاك الصوت وذانكما المنكبين لرجل مثّل افلام سينمائية كان موضوعها مطاردة المهربين ومزيفي الدولارات.. كان يرتدي قبعة مستديرة من القش، رماديّة، ذات شريط ملون. قال وهو يستخرج ساعته «أخشى أنني تأخرت بضع دقائق.. فعندما أعطيتكم هذا المظروف الذي يحتوي على تفاصيل اللقاء الثنائي مع الصديق غورباتشوف، لم أنتوِ قط أن تفضوه، اذ كان عزمي الأكيد أن اكون معكم قبل ان يحين الموعد!» وكان ثمة ضحك مترقّق بين المقاعد الأمامية وحينما أعاد ريغان ساعته الى جيبه، بطريقة بهلوانية، سرى الضحك بين المستمعين، والقى بعض الحضور فكاهات، ردّ عليها ريغان، معاملاً مقاطعيه ببراعة. وعندما إستتب الصمت ثانية، أماط ريغان اللثام عن إنطباعه باللقاء، فقال «يا لها من مهمة بديعة، لقد بدت لي حمقاء ـ وانا

في واشنطن ـ ولكني مسوق الى أن أقول أنها تبدو ـ هنا في جنيف ـ اكثر. وسأترك لكم هذا المظروف، فتدارسوه جيداً، وسأميل انا الى أن أستقل أول سيارة ميممة شطر الفندق، حيث يمكث هناك غورباتشوف. وعندما أعود سأضع لأكثركم نباهة اعلى علامات النجاح..!!

ولقد أكد ريغان في مؤتمر صحفي New Conference يعقده اسبوعياً في امريكا، ان الهدف الاساس من لقاء غورباتشوف معه هو محاولة الروس الغاء مشروع حرب النجوم. واضاف ريغان؛ ان غورباتشوف كان يلح في طلبه لدرجة ضرب الطاولة بيده عدة مرات!! وأضاف ايضاً أنه لن يتخلى عن مشروعه الذي نعتهُ هنا بـ « درع السلام » حتى ولو ألغى الروس من جانبهم مفاوضات نزع السلاح.

هذا كل الذي عرفه العالم عن نتائج القمة.. وعرف كذلك ان الزعيمين الامريكي والسوفياتي عقدا مؤتمراً صحفياً في جنيف بعد اختتام المباحثات الرسمية بينهما. وقد حضر المؤتمر (٣٠٠٠) صحفي من شتى انحاء العالم لتغطية احداث المؤتمر. وقد اكتفى الزعيمان بالاشارة الى البيان الصادر عن المؤتمر والذي وقّع من قبل وزيري خارجية البلدين وبحضورهما. وقد طبع منه اكثر من (١٠٠،٠٠٠) نسخة، باللغات الروسية والإنكليزية والفرنسية والالمانية والصينية والاسبانية، بالإضافة الى لغة (برايل) الخاصة بالمكفوفين.

وهكذا يبدو ان كلا الجانبين قد دخل الملعب، وان كلًا منهما يركل الكرة الى ملعب الآخر، مهيئاً الأرضية لالقاء اللوم على الطرف الآخر. فالاثنان يتشاوران حول الخطبة والزفّة بعيدة بُعد النجوم. وحتى وإن تمّ الزواج فإنها قد تنجبُ مولوداً سياسياً مشوّهاً سيضيف الى معاناة الشعوب كمًّا مضافاً واشكالًا جديدة من الآلام قد تتصاعد آثارها الى حدٍ تتشابك فيها آلام الحمل مع آلام عسر الهضم! وهذا ما يجعل آلام إجهاضه أخف بكثير من آلام ولادته ناهيك عن اخطار كونه توأماً فكيف تكون القسمة

حينئذ؟ وهل سيتم الطلاق.. بحيث لن يلتقي العملاقان في قمة جديدة؟ ربما هذا وذاك.. او لا هذا ولا ذاك..

فلقد سمعنا في الايام اللاحقة للقاءات ان غورباتشوف وريغان سيلتقيان بعد شهور.. في ساحة للتزحلق على الجليد! ولكن لا غرابة في الخبر.. فالأول لاعب روسي في التزحلق على الجليد والثاني رجل أعمال امريكي يهوى ممارسة الركض فوق الثلوج.

برنامج
حزب النجوم

في عام ١٩٨٣ إنسحب الاتحاد السوفياتي من مفاوضات تخفيض الاسلحة الاستراتيجية في اوروبا، التي كانت منعقدة في جنيف، بسبب اصرار الولايات المتحدة على برنامجها الداعي الى ادخال صواريخ استراتيجية متوسطة المدى الى اوروبا الغربية من طراز (بيرشينغ - ٢) و(كروز) بمعدل (١٠٨، ٤٦٤) على التوالي.. وكانت ادارة ريغان تهدف بذلك الى الموازنة مع السوفيات الذين وزّعوا (٢٤٠) صاروخاً من طراز (اس. اس - ٢٠) الذي يحمل كل منها (٣) رؤوس نووية موزعة على اوروبا الشرقية.

ورداً على انسحاب السوفيات، اعلن الرئيس الامريكي ريغان في تصريح تاريخي يوم ٢٣ آذار خلال خطاب موجّه للشعب الامريكي وللعالم حين خاطب الاسرة العلمية الامريكية قائلًا: أنا أدعوكم لأن تقدموا لنا وسائل لقلب الاسلحة النووية السوفياتية الى اسلحة عاجزة وبالية، والوسيلة لتحقيق هذا الطموح هو خلق جهاز قادر على تدمير الصواريخ السوفياتية بعد انطلاقها وقبل وصولها الى أهدافها. وهذا الجهاز هو الليزر او الحزم الجزيئية عبر سلاح حركي يمكن نصبه على الأرض أو في الفضاء.

وقد أطلقت تسميات عديدة على المشروع الذي صرّح به ريغان امام

علماء الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية والتكنولوجية في امريكا، ودعاهم فيه للتعاون مع وزارة الدفاع لوضع نظام محكم للدفاع عن الاراضي الامريكية ضد غارات الصواريخ السوفياتية العملاقة.

من تلك التسميات، حرب الكواكب وحرب النجوم. ولقد دافع ريغان عن مشروعه هذا، الذي رصد له ٢٦ مليار دولار للانفاق على الابحاث العلمية لهذا المشروع لمدة خمس سنوات.

ومن دعاوى دفاعه عن هذا المشروع الذي عرف (بمبادرة الدفاع الاستراتيجي (Strategic defense initiative (SDI) قوله؛ ان حرب الكواكب بهذه الصورة تعتبر العلاج الوحيد لإنقاذ البشرية من أخطار الأسلحة النووية اذ سيتم تدريجياً توقف الإنتاج في المجال النووي بعد تقدم الدفاع ضد الصواريخ الحاملة للرؤوس النووية وامكان تدميرها قبل وصولها الى الاهداف الارضية.

بدا لي الآن، إنه من الواجب القول لمن كان يظن، أن هذا المشروع، قد ولّد على بغتةٍ من العالم، ان فكرة انتاج صواريخ دفاعيّة مضادة للصواريخ الاستراتيجية عابرة القارات، تعود الى عام ١٩٦٢، عندما أطلق الامريكيون أول إنتاجهم من الصواريخ الدفاعية على صواريخ مهاجمة (بدون رؤوس مدمرة) فوق المحيط الهادي وقد عرف البرنامج الخاص بهذه التجارب بإسم (الحارس الامين) او (سيف جارد) Safeguard. وكانت الصواريخ المستخدمة في هذه التجارب والتي استمرت حتى عام ١٩٧٢ من نوعين هما (سبرينت) و(سبارتان) وكانت الفكرة مقبولة منطقياً ولكنها بالغة الصعوبة لأن الأمر يحتاج الى تكنولوجيا تبلغ من الدقة والتقدم ما يفوق الخيال. ومع ان تلك التجارب إستمرت منذ الستينات ولم تتوقف، لكن ولادتها الحقيقية كانت بعد اعلان ريغان عن مشروعه (SDI) في عام ١٩٨٣.

وفي عام ١٩٨٤ اجرى الامريكيون اول تجربة للاسلحة المضادة للأقمار

الصناعية، حين أطلقت طائرة من طراز (اف ـ ١٥) وعلى ارتفاع (١١) الف متر، صاروخاً من طبقتين ركبت عليها اسطوانتان متفجرتان مزودتان بأجهزة توجيه تحت الحمراء Infra Red استطاعتا تدمير نموذج قمر صناعي. ومما يؤكد على ان الامريكان ماضون فعلًا في برنامجهم، رغم ردود الفعل السلبية السوفياتية هو تطوير هذا الاسلوب، من خلال تجربة علمية مشابهة في العاشر من حزيران عام ١٩٨٤. حيث اعترض صاروخ «مونيمن» الذي انطلق من قاعدة له في ولاية كاليفورنيا، واعترض صاروخاً مضاداً له انطلق من جزيرة (أرخبيل كواجالين) في المحيط الهادي. وبعد دقيقة وعشرين ثانية من انطلاقه دمر صاروخ المونيمن بالصاروخ المضاد لهُ حيث كانت سرعة الاصطدام قد وصلت الى ٢٥,٠٠٠ كيلومتر في الساعة. وبعد أن تكلّل تطبيق البرنامج بالنجاح من حيث المبدأ، واصلت امريكا بحوثها في هذا المجال، حتى ان مصادر الادارة الامريكية باتت تعلن عن قناعتها بأنه مع حلول عام ١٩٨٧ فإنه سيكون لدى الولايات المتحدة سرب كامل من الطائرات الخاصة المزودة بالاسلحة المضادة للأقمار الاصطناعية.

ان هذه التجارب والمباحثات المستمرة بين العملاقين لم تكن بعيدة عن استعراض العضلات ومحاولة الحصول على نتائج إيجابية لضمان نجاح مشروع حرب الكواكب وبالتالي تحقيق الدفاع الاستراتيجي المنشود.

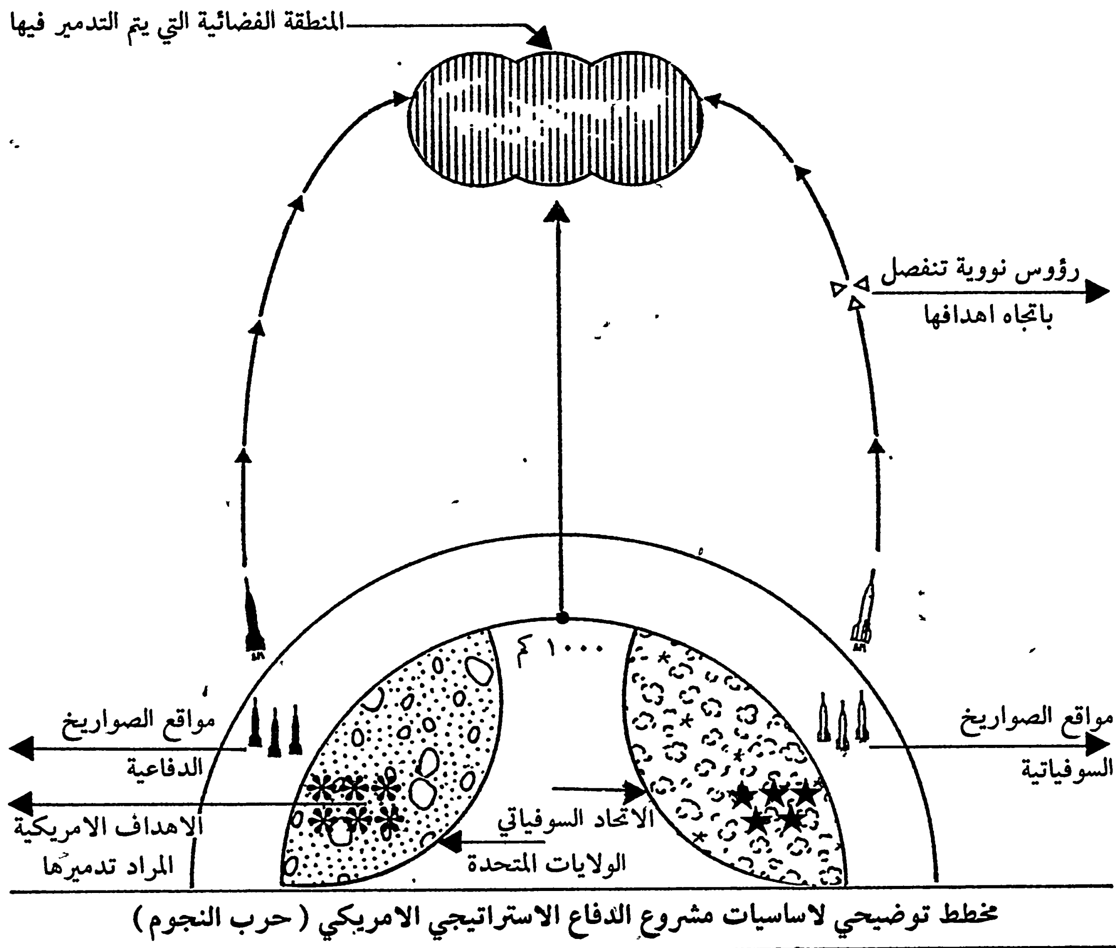
يمر المشروع بثلاث مراحل، يمكن تلخيصها على الوجه التالي:

المرحلة الأولى: الإستطلاع المبكر لمواقع اطلاق الصواريخ المعادية من خلال اجهزة مراقبة تعتمد على الاشعة تحت الحمراء Infra Red تكشف موقع الانطلاق وما يتسبب عنه من إنبعاث حرارة شديدة من اشتعال الوقود القاذف للصاروخ.

المرحلة الثانية: الإبلاغ المبكر عن تلك المعلومات الخاصة بموقع المكوث وتوقيت الإنطلاق للصاروخ المهاجم العابر للقارات وإرسال

المعلومات الى أجهزة الدفاع الصاروخي بالاراضي والاجواء الامريكية لاتخاذ اللازم لسرعة اطلاق الصواريخ المضادة سواء من قواعدها الارضية او من الطائرات الحاملة لها والتي تقوم بالطيران الدَّوري استعداداً لهذه المهمة، ولتطلق تلك الصواريخ الدفاعية بأسرع ما يمكن.

المرحلة الثالثة: التصدي للصاروخ المهاجم. ففي الفترة التي تنقل خلالها تلك المعلومات، يكون الصاروخ المهاجم قد إنطلق في مساره عبر الفضاء متجهاً الى الأهداف الموجودة في المنطقة ويكون الاستعداد قد تمّ لإطلاق الصواريخ الدفاعية حيث يلتقي الصاروخ الدفاعي بالصاروخ الهجومي، ليتم التدمير في الفضاء من خلال انفجار الرؤوس المحمولة بالصاروخ المهاجم. والمخطط المرفق يوضح المشروع الامريكي.



مخطط توضيحي لاساسيات مشروع الدفاع الاستراتيجي الامريكي (حرب النجوم)

إن البرنامج الذي يتبناه الرئيس الأمريكي ريغان، والذي تردده وكالات الانباء هذه الايام تحت اصطلاح حـرب النجـوم (Stars War) ما هو الا تعبير عما ينتويه ريغان لتطوير جيل جديد من الأسلحة وهي:

أولًا: أسلحة أشعة الليزر Laser Beam Weapons.

اصبح الفضاء الواسع مشحوناً بأسلحة حديثة تمتلك طاقة تدميرية عالية. وقد كثر الجدل في الفترة الأخيرة حول إمكانية استخدام أسلحة مضادة للحد من فاعلية القذائف النووية وإبطال تأثيرها قبل وصولها الهدف.

الاسلحة التي يتكلمون عنها هذه الأيام هي اسلحة الليزر والاسلحة التي تعتمد على أشعة الجزئيات الذرية ذات الطاقة العالية. ولهذه الاسلحة القابلية على تحديد نقطة معينة من الهدف وإصابته وبالتالي حرقه وتدميره بصورة فعالة.

وتختلف عن الاسلحة التقليدية، كونها عبارة عن إشعاع، أما يُبث بموجات تحت حرارية كما في حالة الليزر، او إشعاع من جزيئات ذرية معجلة الى طاقة عالية وتمتلك خاصية مشابهة لخاصية الضوء. وهي القابلية على التركيز المباشر على الهدف اذا كان في مجال الرؤية فقط. أما على المسافات البعيدة فإن الإشعاع يجب أن يسبق الهدف لإصابته.

أما الخاصية الثانية فهي إمكانية هذه الأسلحة، ضرب عدة أهداف بسرعة، على شرط أن تكون الطاقة الكامنة في أجهزة الأسلحة كافية لعدة استعمالات.

كما نشرت المجلات(*) بعض التصورات لاستخدام أسلحة الليزر يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ استخدام مولد أشعة الليزر محمول على محطة فضائية. وهو يطلق

(*) مثل مجلة «علوم» التي تصدرها الرقابة العامة وفي العدد ١٣، ١٩٨٥.

الشعاع على القذيفة . اما في مرحلة التسارع أو بعد خروجها من الغلاف الجوي .

٢ ـ توليد أشعة الليزر على محطة أرضية وعكسها بواسطة مرايا عاكسة محمولة على قمرين صناعيين ، الأول على ارتفاع عال والآخر على ارتفاع منخفض .

٣ ـ استخدام طاقة التفجير النووي كمصدر للقوة اللازمة للحصول على اشعة إكس « X - Ray » وذلك يعني تدمير كلا من مدفع الليزر والهدف معاً .

ثانياً : اسلحة اشعة الجسيمات المشحونة ؛ وهي ثلاثة انواع من الاسلحة :ـ

١ ـ اسلحة الشعاع المتعادل Neutral Particle Weapons .

٢ ـ اسلحة الشعاع الالكتروني Electron Beam Weapons .

٣ ـ اسلحة الشعاع البروتوني Proton Beam Weapons .

والنوع الثاني يطلق سيلاً من الالكترونات (ذات الشحنة السالبة) من مدفع الكتروني يعتمد على توليد سيل من الالكترونات ، ثم إحداث تسارع لها للوصول لسرعة عالية بهدف اختراق وتدمير الصواريخ ذات الرؤوس النووية .

اما النوع الثالث فهو يشابه ذلك ، فيعتمد على توليد سيل من البروتونات وإحداث تسارع لها ولكن في مدفع بروتوني .

ان اسلحة اشعة الجزيئات الذرية المعجلة ، يمكن أن تنصب على الأرض أو حملها في اقمار صناعية تدور حول الأرض على مدارات عالية بهدف التسليط على الصواريخ بعد خروجها من الغلاف الحيوي الارضي .

وعادة ما تتكون هذه الاسلحة من مصدر شعاعي ونظام قيادي لتوجيه الاشعة نحو الهدف ، وجهاز اطلاق الاشعة (المدفع) وتحديد الهدف .

ولكي نحدد الفوائد الفريدة التي تمتاز بها هذه الأسلحة فيجب ان

تتوفر فيها خصائص معينة. منها ان تحديد الهدف يجب ان يكون دقيقاً لأنها تستطيع تحطيمه فقط من خلال إصابته اصابة مباشرة. والشيء الآخر هو المسافة بين الهدف ومصدر الأشعة، ولهذا يجب ان يبقى جهاز السيطرة الإشعاعية مركّزاً على نقطة معينة من الهدف ولمدة محدودة حتى يحدث التحطيم الكافي.

بالاضافة لذلك فإنه يجب على جهاز اطلاق الاشعة (المدفع) ان يكون سريعاً جداً وخصوصاً اذا ما كان هناك هجوم من عدة إتجاهات.

ان وضع مثل هذه الاسلحة في مدارات حول الأرض يمكنها من اصابة الصواريخ النووية أو الأقمار الصناعية المضادة. ولتحقيق مثل هذه المهمة، رُئيَ ان تكون هناك عدة محطات تدور حول الارض. وعلى سبيل المثال، فعلى ارتفاع ١٠٠٠ كم من سطح الارض، يجب أن تكون هناك حوالي ١٥٠ - ٢٠٠ محطة مسلحة بتلك الاسلحة.

ثالثاً: مدافع المادة Matter guns.

وهي تعتمد على تسارع جسيات في أجهزة تسارع خاصة الى سرعات عالية، ولكنها لا تزيد عن ٣ ٪ من سرعة الضوء، واحياناً تصل الى ١٠ ٪ من (سض) في المشروعات الطموحة.

ومن المعروف ان اختراق الدروع يعتمد كثيراً على سرعة القذيفة او بمعنى أدق على طاقة الحركة لها، حيث ان من مبادئ الفيزياء، أن:

طاقة الحركة = نصف الكتلة × مربع السرعة - طح = ١/٢ ك م٢

فمثلاً اذا امكن اجراء تسارع لطلقة عيارية، وزنها واحد غرام الى سرعة حوالي ١٠ ٪ من سرعة الضوء فإن قدرتها التدميرية تعادل ١٠٠٠ كيلوغرام من مادة (T.N.T. ثالث نترات التولوين. وقد وضعت بعض التصميات لمدافع المادة، يمكن أن تعطي تسارعاً للطلقة يعادل ٥٠٠٠٠ (خمسين الف) مقدار عجلة الجاذبية الأرضية، Gravity, Acceleration ويرمز لها بالرمز G.

رابعاً : الاقمار الصناعية المقاتلة : Fighting Satellites

توجد كثير من المشروعات للأقمار الصناعية المقاتِلة، سواء التي تحمل انواع الاسلحة السابقة وتدور في افلاك حول الأرض، والتي تزود بأسلحة تقليدية او نووية.

تحديات مشروع
حرب النجوم

يُمثل برنامج « حرب النجوم » المصطلح عليه رسمياً بـ « مبادرة الدفاع الاستراتيجية » تعبيراً عن الاتجاه العدائي والخطر جداً للادارة الامريكية الحالية. وهدفه هو قلب ميزان الاسلحة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفياتي لصالحه وحرمان الأخير من فرصة ولو طفيفة في الرد.. وكما صرح ريغان، فإن هذا البرنامج مصمم بحجة جعل الاسلحة النووية ضعيفة ومُهملة. ولكن الاتجاه الذي يتبناه السياسيون وعلى رأسهم ريغان نفسه، يدعو للمناداة بأن نجاح المشروع سيؤدي حتماً الى أن تصبح الولايات المتحدة والعالم الغربي قلعةً لا يمكن إختراقها بالصواريخ النووية السوفياتية وبالتالي فإنه يترك الاتحاد السوفياتي متخلفاً بما لا يقل عن ١٥ سنة عن الولايات المتحدة ويضعه في موقف تفاوضي ضعيف للغاية.

ويمكن ادراج التحديات التي تواجه مشروع حرب النجوم واسلحته كما يلي:-

اولاً: بالنسبة لأسلحة الليزر، نجد ان هناك عواقب تقف دونها وهي:-

١ - حتى بمضاعفة طاقة اسلحة الليزر بمقدار مئة ضعف عما هو موجود الآن، فلا يمكن اعتبارها اسلحة فعلية. حيث ان طاقة الشعاع عند دخوله المجال الغازي للكرة الارضية سوف تضمحل بسبب أن لجزيئات الهواء

القابلية على امتصاص وتفريق الاشعة وهذا يقلل من مدى الشعاع وفاعليته. ان المدة الزمنية التي يستغرقها الشعاع لا تزيد عن واحد على عشرة ملايين من الثانية.

ثم أن مجموعة المحطات القادرة على اطلاق اشعة الليزر بسرعة الضوء ستكون بالغة الضعف امام ضربة سوفياتية وقائية في حال وقوع الأزمة. كما ان اجهزة الليزر تحتاج الى مصادر هائلة من الطاقة. فمن المعلوم ان كثافة الطاقة لشعاع الليزر هي ١٠ بليون واحد لكل سنتمتر مربع وذلك يعادل مليون ميكاواط وهو ايضاً يساوي ٢٠ ضعف القدرة الكهربائية لجميع محطات القدرة في بلد مثل انجلترا، اي إنه رقم مرعب ظاهرياً وخيالي (تحتاج الاقمار التقليدية الى فولتية لا تزيد على ١٠٠ فولت). ثم ان علماء مختبر البحوث في (لونس لنيمور) يعتقدون بأن حماية هذه المحطات تحتاج الى مليون طن من المواد الحمائية ونقلها الى الفضاء باهظ التكاليف جداً.

٢ ـ سهولة انعكاس اشعة الليزر بأي سطح لامع. لذا فهناك بعض المعارضين يجزمون ان استعمال مثل هذه الاسلحة سيكون عقيماً في حالة حدوث هجوم موسع ومن عدة اتجاهات لاعتقادهم بأن العدو يستطيع طلاء أقماره الصناعية وصواريخه بمواد عالية الانعكاس لها القابلية على عكس الاشعة وتقليل امتصاصها.

٣ ـ اشعة الليزر تتشتت بسهولة تامة اذا مرت في دخان أو ضباب أو في السحب عند الظروف الجوية السيئة، أي أنه يكفي الروس ان يعلنوا الحرب اثناء الظروف الجوية السيئة في الشتاء مثلاً، لضمان وصول القذائف لاهدافها وكذلك ستائر الدخان الصناعية.

٤ ـ بعد ذلك توجد مشكلة رئيسية وهي مشكلة تتبع الهدف والتصويب عليه بشعاع يقل قطره عن ملليمتر واحد لإصابة هدف على بُعد عدة كيلومترات يتطلب دقة عالية لاصابة الهدف وهذه الدقة تحتاج لتكنولوجيا متطورة غير موجودة حالياً.

٥ ـ ان اجهزة الكومبيوتر الحالية غير ملائمة للبرنامج. ففي داخل المنظومة يجب ان تكون هناك عقول الكترونية متطورة تقوم بالتخطيط للعمل في اللحظة التي يتم فيها تحديد موقع اطلاق الصاروخ المعادي. ويجب استبعاد الانسان عن منظومة اتخاذ القرارات بحيث تعمل اجهزة الكومبيوتر بمفردها. وعلى الرغم من كل ذلك فإن احتمال الخطأ وارد هنا.. وعلينا أن نتخيّل مصير البشرية آنذاك.

٦ ـ وفي حالات اخرى بالامكان استخدام حيّل معينة للتشويش على جهاز الاتصالات او حتى تعطيل الجهاز نفسه.

٧ ـ ومن جملة الامور المضادة الاخرى التي يمكن ان تستخدم للحد من فاعلية هذه الاسلحة هو استعمال الغام فضائية لتفجير هذه المحطات في مداراتها.

ثانياً: كما أن هناك عيوباً لاسلحة الاشعة الجسيمية المشحونة منها:

١ ـ المدى المؤثر ضعيف للغاية داخل الغلاف الجوي، لذا لا يمكن استخدامها كأسلحة الا في الفضاء الخارجي.

٢ ـ الاسلحة الالكترونية والبروتونية من الاسلحة التي يتأثر كل منهما بالمجال المغناطيسي للكرة الأرضية مما يؤدي لانحناء الشعاع وذلك يتطلب تصميم جهاز تصويب دقيق وهو أمر شاق للغاية.

٣ ـ تؤدي الخاصية السابقة الى سهولة التأثير عليها بأي مجال مغنطيسي صناعي مما يؤدي لإعاقة كلا النوعين من الأسلحة.

٤ ـ يمكن بسهولة احداث اضطراب مغنطيسي فضائي بواسطة تفجير قنبلة ذرية في الطبقات العليا، وهو إضطراب يدوم فترة طويلة، وبالتالي يقود الى فشل اسلحة الإشعة المشحونة بجميع انواها.

ثالثاً: اسلحة «مدافع المادة»: بالرغم من ان هذا النوع من الاسلحة يعتبر مقبولاً من قبل العسكريين من ناحية المبدأ، لكن هناك مشاكل ما

زالت تواجه العلماء وهي :ـ

١ ـ لا تتوفر مواد هندسية لبناء اجهزة تسارع المادة Matter Accelerator أو مدافع المادة، حيث ان القوى المؤثرة عليها ضخمة للغاية، وتحتاج الى جيل من السبائك عالية المتانة.

٢ ـ ان اطلاق طلقة Yound بهذه السرعة داخل الغلاف الجوي يؤدي الى ارتفاع درجة الحرارة والضغط المحيط بالطلقة الى ظروف تشابه الظروف الموجودة داخل النجوم، لذا فإن الشركات تقترح ان يكون مدفع المادة محمولاً بواسطة قمر صناعي.

٣ ـ ضرورة موازنة قوة الجاذبية الأرضية Ground Gravity اثناء مرحلة التسارع، وهذا يستدعي ايضاً ضرورة حمل مدفع المادة في سفينة فضائية.

٤ ـ يبلغ نصف القطر المحتمل لهذا المدفع Gun ما يزيد عن (٢) كيلومتر ولك ان تتصور المشاكل الناتجة عن محاولة وضعه في مدار فضائي.

رابعاً: الاقمار الصناعية المقاتلة: يثير العسكريون النقاط التالية :ـ

١ ـ ان الاقمار الصناعية المقاتلة يمكن بسهولة تدميرها او اعاقتها او حتى خطفها بواسطة سفن الفضاء التي تماثل المكوك الفضائي أي أنها معرضة دائماً.

٢ ـ لا يمكن الوثوق من درجة استعدادها Readiness وفعاليتها Effectivness لأن العسكريين يحبون دائماً التفتيش على السلام والتأكد من فعاليته في اوقات السلم استعداداً لرد الفعل السريع في ايام الحرب، وهم لا يثقون كثيراً في الاقمار الصناعية في هذا الصدد إضافة الى صعوبة صيانتها واصلاحها بسبب وجودها في الفضاء.

ورغم محاولة التشكيك بامكانية التنفيذ العملي للمبادئ النظرية لـ « حرب النجوم » الا ان التطبيقات العملية والتجارب التي احيطت بسرية تامة ماضية قدماً. حيث ان مكتب البنتاغون الذي يدير برنامج « حرب

النجوم » يعتقد، ان هذه المشاكل قد تكون قابلة للحل. ويقول الدكتور جيرولديوناس والبروفسور ادوارد تايلر E. Tayler؛ ان اخطاء هذه الاجهزة أقل من اخطاء البشر وأنه قد يتم اختراع اسلحة واقية واخف وزناً وربما تصنع من الياف الكاربون أو اقمار صناعية قادرة على المراوغة او الرد باطلاق النار. لقد تمّ حتى الآن اجراء تجارب في المرحلة الاولى تمّ خلالها إنفاق ما يزيد على ثلاثة مليارات دولار.

وقد وضع المشروع بعهدة ثلاث فرق من الخبراء، يعمل بتصرفها (١٢) عالماً وفنياً وخبيراً. وهذه الفرق تعمل على برنامج حرب النجوم بمباركة من الأدارة وهي: فريق دراسة استراتيجية الامن المستقبلي بقيادة (أف. هوفمان) وفريق الاقسام المشتركة للادارة نفسها بقيادة (والتيغر وكلارك) وأوصى الفريق الثالث، الذي كان اقواها سلطة، في اواسط أيلول ١٩٨٣، بأن يتسارع العمل في برنامج «حرب النجوم» بوتيرة متصاعدة. وحسب ما ورد في جريدة امريكية، كان وراء ذلك حساب مفاده انه «حتى قبل نشر الاسلحة، فإن عرض التكنولوجيا الامريكية سيعزز من مواقف الولايات المتحدة العسكرية والتفاوضية في المحادثات مع الاتحاد السوفياتي». وانطلاقاً من ذلك، وقع الرئيس توجيهاته المرقمة ١١٩ في ٦ كانون الثاني ١٩٨٤، مؤشراً بداية البحث الموسع في تقرير امكانية «حرب النجوم» وعينت الادارة في اواخر آذار الفريق (جيمس ابراهامسون) رئيساً للمشروع بقصد تطوير نظام الدفاع الصاروخي الذاتي الدفع. بينما يقف اليهودي العجوز ادوارد تيلر مديراً لمختبرات سان فرانسيسكو وأكبر مدافع عن المبادرة الدفاعية الاستراتيجية عندما كان عضواً في «مؤسسة الميراث» المحافظة جداً، عام ١٩٨١، والتي كانت تشجع فكرة نقل سباق الاسلحة الى الفضاء الخارجي.

ان «تايلر» مخترع قنبلة الهيدروجين، كان له الفضل في انشاء العديد من معامل الاسلحة ومنها على سبيل المثال معمل «ليفرمور» وسط

كاليفورنيا، والذي تخصص مبكراً في صناعة الرؤوس الذرية المتقدمة، ولعله صمم نصف تلك الموجودة بالترسانة الامريكية حالياً. وقد اقترن إسمه بحرب النجوم رسمياً. وتايلر من الجماعة الامريكية التي تُؤمن بالردع، لذا فهو ينتقد هذه التسمية «الدفاع» ويعتبرها خطأ من قبل ريغان، ويقول: ان من الافضل ان يقلق السوفيات مثلما نحن قلقون من منظومات دفاعهم الاستراتيجي، فهم يحاولون استخدام «ابتزاز» نووي ضدنا.

ان اجمالي ميزانية المشروع للعام ١٩٨٦ تبلغ (٣٧٢٢) مليون دولار وهذا المبلغ يعادل اجمالي ميزانية وكالة الفضاء الامريكية «ناسا» ويزيد على ضعفي ميزانية «مؤسسة الابحاث القومية». ان هذه الميزانية الضخمة مخصصة فقط للقيام بالأبحاث اللازمة لتطوير وتقييم التقنيات اللازمة لمواجهة الصواريخ العابرة القارات وليس لبناء النظام المضاد لحرب النجوم نفسه واسلحته، فهذا الأمر سيتطلب (٥٠٠) مليار دولار لإقامة الدرع التسليحي الذي سيتم نصبه في الفضاء الخارجي.

ولقد تم حتى الآن إجراء تجارب أولية على ما يسمى (بالأشعة الذرية) كما تمت تجربة (لايزر الذرة Laser of Atom) في موقع تحت الارض في نيفادا Nevada وهي تجارب تحتاج الى سنوات طويلة قبل ان يصبح بالإمكان جعلها قابلة للتطبيق وتقليل تكاليفها. ويأمل العلماء الامريكيون التغلب على الصعوبات التقنية في بداية القرن الحادي والعشرين بمنظومة ستصبح قابلة للتنفيذ العلمي.. ولكن هل ستبقى أشباح موتى على مدى ربع قرن او يزيد ؟ !!.

سيناريوات
الحرب العالمية الثالثة

- قبل التحدث عن سيناريوات الحرب النووية، ثمة سؤال يثور هو هل فكرت الولايات المتحدة، حقاً، في استخدام القنابل الذرية والاسلحة النووية ضد الاتحاد السوفياتي؟

الجواب: نعم. لقد استخدمت الولايات المتحدة السلاح الذري مرتين ـ في هيروشيما وناكازاكي ـ لا لتضع نهاية عاجلة للحرب العالمية الثانية ولكن لتعلن عن سيطرتها العسكرية في عالم ما بعد الحرب. ومن البداية تماماً كان السلاح النووي سيفاً مشؤوماً جازفت الولايات المتحدة باشهاره في وجه العالم الاشتراكي بعدما تقدمت القوات الروسية لاحتلال اليابان. وكان ذلك الاستعمال بمثابة التوقيع النهائي على «يالطا» التي حوّلت الحلفاء الى خصوم ورسمت الخط الاحمر الفاصل بين معسكرين كل منهما له قواعده وحلفه واستراتيجيتهُ.

وتظهر وثائق الولايات المتحدة السرية التي نشرت، انه بعد استسلام اليابان بـ (٥١) يوماً بالضبط، وضعت رئاسة اركان الولايات المتحدة تقريراً عنوانه (القابلية الاستراتيجية لاسقاط روسيا بهجوم جوي محدود) وكان التقرير يصور قصف ٢٠ مدينة سوفياتية قصفاً ذرياً. بعد ذلك بدأت اشكال اخرى من الحرب النووية ضد الاتحاد السوفياتي تتكاثر تحت اسماء شفرية هي: سائق العجلة والعجلة المسننة والبارود والنجم المخادع

وأ ب جـ ١٠١ والثنائية والغاية الزائلة. وفي عام ١٩٤٩ ظهر « مخطط الضربة المميتة » الذي هو أوسع المخططات جميعاً. وكان السبب الوحيد في عدم تنفيذه ان واضعيه لم يكونوا واثقين من نجاحه.

وكانت المرحلة الثانية في استخدام واشنطن للاسلحة النووية ضد البلدان الاشتراكية في اثناء الحرب الكورية. وصار ذلك معروفاً على نحو واسع لأول مرة من خلال مذكرات الرئيس ايزنهاور Dwight Eisenhower التي نشرت في اوائل عام ١٩٦٣.

وعُرف من الوثائق الوثيقة الصلة، ان مجلس الامن القومي الامريكي NSC في الولايات المتحدة ناقش في آذار ١٩٥٣ الاوجه العملية في استخدام الاسلحة الذرية على نطاق محدود في كوريا. وفي اواسط مايس ١٩٥٣ كان مجلس الامن القومي الامريكي قد فكر باستخدام القنابل الذرية باعداد كبيرة « خارج كوريا » ايضاً. لقد قال الرئيس ايزنهاور ان الشيء الوحيد الذي اقلقه في حينه هو الرد الممكن للاتحاد السوفياتي او الهجوم المقابل Counterattack ضد أمثال هذه الأفعال الامريكية.

وتظهر المصادر الأخرى وجود تهديد حقيقي في النصف الاول لعام ١٩٥٤ وذلك بأن تبدأ الولايات المتحدة حرباً نووية عالمية تُوجه بها الضربة الإجهاضية الى الاتحاد السوفياتي، غير ان هذا أفزع حليفاتها.

وفي الوقت الحاضر توجد نظريات ترسم سيناريوات Senarios لحروب نووية إفتراضية. وتلك النظريات يمكن تصنيفها على فئتين: احداهما نظرية تحليلية، كثيراً ما أطلق عليها اهل الصنعة اسم « الميتافيزيقيا » او « الفقه »؛ اما الاخرى فهي واقعية عملية تخطط للحرب. وجلّ معرفة الجمهور بهذه الاشياء مستمدة من مناظرات الفقهاء الذين يمضون وقتهم في السفسطة والالتجاء الى التعليلات من نوع « لو.. إذن » اي لو فعل العدو (س) اذاً لفعلنا (ي). ولقد شغل الفقهاء أنفسهم بصورة خاصة بالتدليل على ان الاسلحة النووية وإن كان لا بأس بامتلاكها الا انها أخطر من ان

تستعمل. وقد شرعت حركة ضخمة منهم في تأييد تجميد الاسلحة النووية ومنع الكارثة. كما سُمعت اصوات مفزعة في اروقة الولايات المتحدة الحاكمة.

في حين ان هناك مخططين حربيين، وهم الضباط من الرتب الوسطى التابعون في العادة لسلاح الطيران والمسؤولون عن التفاصيل العملية الخاصة بتنفيذ الحرب النووية. ومن هؤلاء من يُدعون « بالصقور » وهم لا يقلعون عن افكارهم العدائية في شن حرب نووية. ولقد وجد هؤلاء في « حرب النجوم » امكانية تضليل الحركة الامريكية المناوئة للحرب.

والتخطيط للحرب النووية أمر يختلف حالهُ بين الفئتين. فالفقهاء يتحدثون عن « الخصم » أو « العدو » أما المخططون فيتحدثون عن الروس. ويبدأ المخططون بالتعبير عن ولائهم الاكيد لفلسفة الردع ـ وهو أنه اذا كنا على استعداد فإن الحرب لن تحدث ـ غير إن هذا هو كل ما لديهم ليقولوه. وقد كان هذا المنطق من أكثر السبل تصنّعاً في دفع برنامج « حرب النجوم » الى الامام، حيث جرى تقديم البرنامج على أنه استمرارية منطقية للخط الانساني الذي تابعته الولايات المتحدة الامريكية التي كانت تحتكر كلياً الاسلحة النووية لسنوات عديدة ولم تستخدمها، وانما هي تدخل في نطاق الاستعداد الذي طالما موجود لا ضرورة للخوف من المبدأ الامريكي الجديد (مشروع النجوم).

والطابع الغالب في العادة على سلوك العسكريين هو الحذر وهم يقومون بتحديد الاهداف التي يجب ان تقصف ومتى تقصف. غير ان الحرب وإن كانت جهنم على حد قول الجنرال شيرمان Sherman الذي دمر الجنوب اثناء الحرب الاهلية الامريكية في عهد الرئيس ابراهام لنكولن الا أنه بالنسبة للعسكريين الذين يعدون للقتال يوجد ما هو أسوأ منها وهو الهزيمة. ومن وجهة نظرهم فإنه مهما جرى تزويدهم بالاسلحة فإنها لن تفي بالغرض المطلوب. ومن هذا نبصر ان التخطيط الحربي الامريكي للحرب النووية ـ

وبدون شك السوفياتي ايضاً - قد اعتمد تماماً على القتل المتكرر Overkill ، وبذل الجهود لبلوغ نتيجة مؤكدة عن طريق القوة القاهرة. والقوة، كما يشير كتاب « السعي وراء القوة The Pursuit of Power » لمؤلفه ويليام ج. ماكنيل الصادر عن دار (باسيل بلاك ويل) للنشر عام ١٩٨٣ ، هي تحقيق النجاح العسكري عن طريق إمتلاك الاسلحة المتفوقة. وفي معرض الحديث مع صحفي من واشنطن من المتخصصين في شؤون الدفاع، عبّر احد المخططين بالبنتاغون عن القوة قائلًا « إنني لن أُمانع في الحصول على خمسة وعشرين الف صاروخ من طراز بيرشنغ الثاني Pershing-2 تحمل رؤوساً ذرية من عيار الاربعين كيلوطناً، لو علمت أنه موجود تحت تصرفي قوة من الميغاطن ». ان تلك الفلسفة مشفوعة بتصريحات الجنرال لوماي حين قال مخاطباً سام كوهين Sam Kohen مخترع قنبلة النيوترون Neutron Bomb : « سأقول لك ما هي الحرب - يجب ان تقتل الناس فاذا قتلت ما فيه الكفاية توقفوا عن القتال » !!

ان جميع طبعات الخطة الموحدة للعمليات الحربية « سيوب SIOP » المتتالية تشمل خططاً لهجوم مدمر للمجتمع السوفياتي، متمثلًا في ضرب « اهداف الاستعادة » اي تلك التي بامكانها ان تستعيد صلاحيتها السابقة عقب الضربة الذرية، أقصد بها المنظمات السوفياتية التي تستند عليها قوة الاتحاد السوفياتي، كالمواصلات وطرق النقل، ومكاتب الحزب الشيوعي والكي-جي-بي KGB (البوليس السري) ومراكز القيادة العسكرية، والمخابئ المفردة من اجل القيادة السياسية، ومصانع معدات الحرب الخ. ولكن من المعلوم ان جميع هذه المراكز والمواقع اضافة الى المطارات، والتي هي جميعاً سلعة اساسية في جميع خطط الحرب، تقع في داخل المدن السوفياتية فكم ستكون الخسائر البشرية ؟

وتقدم لنا دراسة قامت بها وكالة الحد من التسلح ونزع السلاح « آكدا » Acda ، وهي تصور لنا - بصورة موجزة - لضربة امريكية تالية.

ترد في اعقاب هجوم سوفياتي مضاد على الولايات المتحدة، على ان يكون هدف هذه الضربة الامريكية الثانية ليس هو التدمير البسيط المباشر بل كشط تام للأهداف التي جرى تشخيصها على أنها مصدر القوة العسكرية والاقتصادية للاتحاد السوفياتي. عند ذاك سيجري ضرب موسكو وحدها بما لا يقل عن الستين رأساً ذرياً، ولينينغراد بأكثر من اربعين، اما الاهداف الثمانية التالية فبثلاثة عشر رأساً في المتوسط لكل واحد منها. ويلي هذا، الاربعون مدينة الكبرى التالية والتي سيكون نصيب كل واحدة منها ١٤,٤ رأساً ذرياً في المتوسط وذلك لكل مليون نسمة، ثم المئة والخمسون مدينة التي تليها بمتوسط ٢٥,٧ لكل مليون نسمة. وهكذا فإن ٨٠٪ من جميع المدن السوفياتية التي تتجاوز في سكانها عن (٢٥) ألفاً ستتعرض للقصف بالاسلحة النووية. وعند ذلك ستقوم الحرب العالمية الثالثة، حيث تتوقع الولايات المتحدة ان تقاسي في مقابل ذلك ضرراً مشابهاً. حيث السؤال المطروح في كل طبعات سيوب؛ ١٩٦١، وسيوب ١٩٧٣، وسيوب ١٩٧٨، وحتى الوقت الراهن؛ هو هل سيبقي الروس على جميع مطارات امريكا فيسمحون للطائرات المتطورة والطائرات ناقلة البترول من اجل تزويد اسطولها الجوي في الهواء بالهبوط فيها؟ ثم هل تنسى روسيا آنئذٍ الاهداف الجويّة بلوس انجلس والمدن الامريكية الرئيسة وتتركها بسلام حتى وإن اختلجت في صدور الروس أطيب النوايا بالنسبة لسكان تلك المدن. إنه ليس من العسير العثور بمئات وآلاف الأهداف من ذوات الاهمية القصوى.. ليس من العسير اطلاقاً.

وفي مصادر اخرى كانت سيناريوات الحرب العالمية الثالثة اكثر دقة وفظاعة. حيث «يقرر الاتحاد السوفياتي ان يكون البادئ في توجيه «الضربة الوقائية» او ما يسميها العسكريون؛ الضربة الاجهاضية، وتعطى الاوامر الى القوات النووية لضرب المواقع الاستراتيجية فوق اراضي الولايات المتحدة الامريكية.. خلال بضع دقائق تنطلق آلاف الصواريخ النووية من مخابئها في سيبيريا الشمالية North Siberia ومن الغواصات الذرية

في الاطلسي والمحيط الهادي قرب الشواطئ الامريكية!

غير ان الولايات المتحدة الامريكية لا تفاجأ ولا تؤخذ على حين غرة لانها قد رصدت الأقمار الصناعية السوفياتية من مخابئها واعطت (الانذار المبكر) بالتنسيق مع ادارة البيت الابيض (مقر الرئاسة) خلال دقيقة واحدة.

يقوم مركز قيادة الدفاع الفضائي بوسائله الحسابية العارمة بمطابقة الضربة الجوابية. وتقوم اسلحة الليزر الموجودة في مدارات الفضاء بالتقاط الصواريخ السوفياتية وهي في الجو وتدمر تسعة اعشارها خلال ثلاث دقائق أما الباقية فإنها تتابع حركتها باتجاه اهدافها.. وتتابع الرشقات الصاروخية ولا تتمكن اسلحة الليزر من إبادتها تماماً حيث تنقض الناجية منها على واشنطن ونيويورك، ونيفادا، ولوس أنجلس، وسان فرنسيسكو، اذ يحمل كل صاروخ عشرة رؤوس نووية تنفجر فوق اهدافها وتتدخل الاسلحة الدفاعية الامريكية لتدمر آخر الصواريخ أثناء طيرانها فيما ستكون ساحة الحرب مشتعلة وغارقة بجثث الملايين.

ليت هذه التفاصيل للجزء الثاني من «حرب الكواكب» أو «أوديسة الفضاء» بل إنها باختصار أحد السيناريوات التي وضعها الخبراء الأمريكيون حول طبيعة الحرب المقبلة والمحتملة بين اميركا وروسيا في إطار الوضع العالمي للاستراتيجية الجديدة المعروفة «بحرب النجوم».

آلة يوم القيامة

إن عبقرية الانسان في القتل والتدمير والتخريب وابتداع وسائلها، لم تتوقف عند القنبلة الذرية وحسب، بل تفتقت عن طرق جهنمية بالغة الخطورة. ومن باب الدفاع عن الحقيقة - لا التبجح الذاتي، أود أن أشير الى رجال ساهموا في صياغة تلك الطرق الرهيبة وابتداعها - منهم، على سبيل الاشارة، ريتشارد تركو (R. Turco) وهو عالم متخصص في الدراسات الجوية ويعمل بشركة البحوث والتنمية، Research and Development Associates، بكاليفورنيا.

فقد أجرى هذا العالِم، ذات مرة، عمليات حسابية ليصل بها الى تحديد مدى ما يحتاج اليه لتدمير جميع الأبنية في العالم بواسطة الموجات الانفجارية Burst Waves أو عن طريق الضغط الانفجاري (Blast Pressure) أو ما يكفي لإشعال جميع المواد القابلة للاحتراق بوجه البسيطة بواسطة الموجة الحرارية Thermic Pulse او الى تعريض كافة الاحياء بالأرض الى جرعة مميتة Lethal Dose من الف وحدة من وحدات الاشعاع «راد» (Rad) لمدة ثماني عشرة ساعة. وقد خرج تركو بنتيجة مؤداها أنه في الحالتين الاوليتين سيحتاج الأمر الى مليونين من الميغاطن من المتفجرات (أي ما يعادل إثنين من التربيونات من أطنان المتفجرات TNT)، أما في الحالة الثالثة فسيكفي ربع تلك الكمية. كل هذا قاد الى حقيقة مفادها «إن تدمير العالم بحاله»

بالمعنى الحرفي للالفاظ فوق طاقة البشر.

يعيب هذه النتيجة إذن، قلة الخبرة والحاجة الى الوسيلة المؤدية لذلك الغرض. وعلى الرغم من غرابة الأمر وإنتفاء التصرف به، لأنه فوق طاقة البشر، وعلى الرغم من أن الأمر اذا لم يستدع الرّيبة فإنه يستثير الحيرة، فمن غير المظنون استحالة تنفيذه، لأنه توجد اكثر من طـريقـة «لسلـخ القط» كما يقول المثل.

فلم نعد بعيدين جداً عن عام ١٩٦٠، وخيال العلامة «هرمان كـان» Herman Kahn في مؤلفه الضخم الذي قامت سمعته عليه والذي ظهر تحت عنوان «الحرب النووية الحرارية The Thermonuclear War، في عام ١٩٦٠ لم يعد هو الآخر بعيداً عنا. فلقد تفتق ذهنه في مؤلفه ذاك عن احتمال ظهور رادع اكبر يمنع القوتين الكبيرتين من الالتحام في حرب نووية واطلق عليه إسم «آلة يوم القيامة Doomsday Machine» والتي سيكون بمقدورها تحطيم كوكبنا اذا ما ضغطت احدى القوتين الكبيرتين على الزر خوفاً من الهزيمة. ولا شك أننا لم نغمط هرمان حقه، عندما نقول أن خير ما يـوصـف به هذا (الغول) هو إنه مفكر «وغد» rascal. فأولى الرذائل التي تسند اليه هي أنه كان يميل الى دفع المذهب العقلاني الى حد المغالاة بغية إثارة أعصاب المذهب الإنساني. في وقت نطالب فيه الى أسنّة الحرب، وهذا التعبير الذي استخدمه غيري وهو ترجمة للفظ الفرنسي Humaniser أي جعل الواقعة ـ وهي الحرب ـ اكثر إنسانية.

انني لا أريد ان اكون متشائماً فأضع مقولة هذا الكاتب الذي ساءت سمعته في الكتابات اللاحقة لمرحلة الستينات وتشوّهت صورته، في سطور هذا الكتاب. ولكني ـ وإن كنت اعرف ان رجلاً بلا صبر، كمصباح نفذ زيته ـ ارى اننا درجنا ـ كمفكرين ـ إن لم اقل ساهمنـا، بـدفـع النـار الى الفتيل، فأضحى العالم يموج في مشكلة لا وصف لفظاعتها. اقول هذا، وأنا أعلم، ان لدى الامم كلها مشكلات صغيرة او كبيرة، ولكن اعلم في

الوقت نفسه، أنه ما من مشكلة اخرى تضارع مشكلة الحرب النووية.

فالبعض من المفكرين، راح يهيم على وجهه، ليبتدع انماطاً من الانتحار للآدميين، ليقدمها في كتب تحمل للقرّاء افكاراً تفوق الاسلحة الذرية قطاعة ورهبة. وكثيراً ما يتطلب ترويج تلك الكتب او بالاصح تصريفها، ان تكون طريفة لا في مضمونها ومادتها، بل بمرآها وشكلها ومظهرها، لتبدو في حلّة مفرطة الأناقة. ويحسن ان تملأ بالرسوم المثيرة والصور الجذابة، مسربلة دائماً بالالوان الزاهية كما تعرض احدث الأزياء على نحو شبيه بالتبرج، ولعلها اشبه ما تكون في حقيقة الامر بخضراء الدِّمْن لها رُواء وليس لها ثمر.

انه نوع من الهستيريا، أو هو أحد انواع الصراع بين الخير والشر. لقد تذكرتُ لوهلتي، مقال ديستوفسكي «لقد كتب على الانسان ان يعيش في تحدٍ دائم. واشترك في هذا التحدي فكر الإنسان من ارسطو حتى «كانـت» Kant ومن بعدهما. ان الانسان ليس بحاجة الى السعادة فقط، إنه يحب العذاب واحيّاناً يحبه بشغف».

ومع ذلك، فإن «هرمان» جاد للغاية في هدفه الاساسي. فقد أحس احساساً قويّاً ان الاسلحة الذرية اضحت حقيقة واقعة في حياتنا الحديثة وانه ينبغي معالجتها بطريقة عقلانية وتحاشي النظر اليها على أنها مجرد شيء يمكن التلويح بطريقة جنونية باستعماله للقضاء على البشرية اذا لم تسِرْ الامور على ما يرام. وهو يشير بهذا الى التخطيطات الحربية التي عملت في أعوام الخمسينات والتي وإن كانت عسيرة التنفيذ الا أنها كانت تهدف الى كشط الاتحاد السوفياتي من على وجه الارض. ففي عام ١٩٥٣ وافقت اركان الحرب الامريكية المشتركة JCS على خطة اطلق عليها اسم «اوف تكل» Off Tackle تفتق عنها ذهن «القيادة الجوية الاستراتيجية Strategic Air Commander» (ساك SAC) تحت رئاسة الجنرال كرتيس لوماي Curtis Lemay وتهدف في حالة اندلاع الحرب الى مهاجمة موسكو بعشرين

قنبلة ذرية ولينينغراد بإثنتي عشرة قنبلة هذا مع القاء البقية الباقية من الترسانة النووية الامريكية (وهي تمثل تسعمئة قنبلة في مجموعها)، على اهداف اخرى بالاتحاد السوفياتي وشرقي اوروبا. وثمة خطة اخرى اطلق عليها اسم «ريبر» Reaper وتمت الموافقة عليها في العام التالي لذاك كانت ترمي الى قصف الاهداف السوفياتية بالف وخمسمائة قنبلة وكان «هرمان كان» يعتقد ان هذا المنهج في الحرب الذي يهدف كل شيء أو لا شيء منهج خاطئ في التفكير، لذا فقد هاجمه بطريقة غير مباشرة في فكرته التي عرضها في «آلة يوم القيامة».

والفكرة التي تضمنها اقتراح (هرمان كان) لصنع «آلة يوم القيامة» والتي كانت وليدة مخيلته، بسيطة في جوهرها: وهي أن تشحن هوة عميقة من الارض (سواء بحفرها او العثور عليها جاهزة بطريقة ما) بآلاف القنابل النووية من الميغاطن بحيث تهدد بتحطيم القشرة الارضية بل وتحطيم الارض نفسها وانفلاقها burst الى قطع متناثرة scatter pieces. وقد أنهى كلامه في هذا الصدد بأن هذه الخطة حتى وإن كانت ممكنة التنفيذ الا أنها تنطوي على الغباء لأنها ستدمر الكرة الارضية ولن تردع، لأن الطرف الآخر سيظل على قناعته بأنه لن يوجد أحد بهذه الدرجة من الغباء ليضغط على الزر. ومن الطريف ان (هرمان كان) اضاف ما يشبه الحاشية او التذييل الى قوله هذا وهو انه ليس من المستبعد أن يصنع الإنسان مثل هذه الآلة عن طريق الصدفة. ولكنه ختم تحليله بقوله أنه يعتقد ان كوكبنا اكثر مقاومة من هذا وانه ليس بالوسع القضاء عليه الا بالقيام بمحاولة حقيقية في هذا الصدد.

وكان هرمان يعمل بمؤسسة راند (Rand Corporation) في عام ١٩٦٠، ويتمتع بالحصانة الأمنية التي مكنته من الاطلاع على العديد من الأسرار النووية الامريكية. ورغماً من ذلك فقد فشل كغيره في تلك الآونة من ان يتحقق من ان البيئة الحياتية للأرض هشة للغاية، لأنه اهمل الآثار الجانبية

للحرب النووية. ولم يدر بخلده ان الولايات المتحدة قد أنتجت فعلاً « آلة يوم القيامة » وكانت على أتم الاستعداد لاستعمالها منذ إعتناقها لخطة « ريبر » عام ١٩٥٤ مع جهل تام بالعواقب الوخيمة التي ستترتب عليها، مثل الدخان المتصاعد من المدن المحترقة والشتاء النووي.

والحرب النووية في مخيلة رجل الشارع على الأقل انما تعني على الدوام نهاية العالم. ولقد وضح العديد من الاستفتاءات التي أجريت لسبر اغوار الرأي العام، أن المواطن الأمريكي يتوقع الفناء والتلاشي في حالة نشوب حرب نووية، بل إن الكثيرين يتمنون الموت في مثل هذه الحال (بدلاً من الموت البطيء نتيجة لعواقب الحرب النووية)، والموت على طريقة « الابوسوم A. Possum ». وهو حيوان امريكي من ذوات الجراب يتظاهر بالموت عندما يحدق به الخطر، فتراه مذعوراً اينما وجد، حتى يموت موتاً بطيئاً من الخوف من الموت نفسه.

والواقع ان احدى الصفات التي تجمع بين هؤلاء الخبراء الأخوة في السلاح هي رأيهم المتشدد بأن الحرب النووية لن تكون بتلك الدرجة من السوء. فلقد قال جورج بوش نائب الرئيس الأمريكي « أن بالامكان كسب حرب نووية اذا ما إستعد المرء لها جيداً ». وقال يوجين روستو، وكان وقتها مدير وكالة السيطرة على الاسلحة ونزع السلاح، إنه حتى لو قتل ١٠٠ مليون امريكي في حرب نووية « فهذا ليس كل شعب الولايات المتحدة ». بيد أنه من العسير تطمين المواطنين العاديين، وذلك لقناعتهم بأننا تجاوزنا منذ وقت طويل نقطة الهلاك الى هلاك متعدد أو القتل الكثير Overkill؛ وليس ذلك ضرباً من البلاغة فحسب بل وحقيقة واقعة أيضاً. ولعل اعصى شيء بالنسبة لفهم الجمهور هو: لماذا يريد العسكريون في هيئة اركان الحرب The Jaint-Staff of War، المزيد من الأسلحة النووية عندما « يوجد لدينا منها أكثر مما نحتاج إليه للقضاء على كل فرد لأكثر من عشر مرات ».

وطبيعي ان فلسفة كهذه جعلت ملايين الأمريكيين الإعتياديين يرتعدون. وجميع من عالجوا الكلام او الكتابة في هذا الموضوع من الأمريكيين وسواهم قد جابهم هذا السؤال مراراً وتكراراً. وكانت اجابتهم هي أن ترسانة الأسلحة النووية الموجودة حالياً بالعالم من شأنها ان تكفي حقاً لقتل كل فرد لو تجمع الناس في مواضع مكشوفة، وان هذا لا يصدق في حال انتقاء ذلك، او هذا ما يبرره الخبراء، ذلك ان «تدمير العالم بحاله» كما يقول المصطلح الفني، سيحتاج الى عدد من الأسلحة يفوق الموجود منها حالياً، بل لعله يفوق ما يستطيع البشر انتاجه.. فهل تلك عبارة مسروقة من «سيوب» الخطة الموحدة للعمليات الحربية، ام هو تبرير لإنقاذ الخبراء من حيرة الأسئلة المتحرّقة للجواب الصحيح؟، كتبرير «غاليليو» لإنقاذ نفسه من نسيان الملك له في سجنه، فقال للجمهور، إذا تطرقوا الصفيح ابتلعت الحوت القمر!! فنهض الملك مذعوراً من نومه واطلق لغاليليو سراحه.

«الحريق النووي»
وأعمدة الدخان

ان «آلة يوم القيامة» ليست الا وجهاً واحداً من الوجوه الكثيرة للعالم الذي نعيش فيه. اما الحريق فهو شيء آخر، لأنه يلتهم البشر وينتشر، فالنار تهاجم كل شيء من اصل عضوي، وذلك بنفس الطريقة التي تهاجم بها الأمراض الفتاكة جسم الانسان. فهي اشبه بالاوبئة التي تجتاح البلاد، لأنها تلتهم جميع المواد القابلة للاشتعال كالاخشاب والورق ومواد البناء المختلفة.

لقد مُنيت (إيرلندا) قبل الحرب العالمية الثانية بطائفة من الحرائق؛ وقد شهدت الثورة الفرنسية الواناً من هذا الجنون Crazy ولكنها كانت جماعية لا فردية، اذ أن سخط العامة على الارستقراطيين كان يدفعهم الى إحراق القصور ومؤسسات الطبقة الارستقراطية في فرنسا. ولعل أشهر مجنون بالحريق هو (نيرون) الذي أحرق روما عام ٦٤ م وراح يغني!.

ولقد كانت ظاهرة إحراق مدن بأكملها ظاهرة جديدة أتت بها الحرب العالمية الثانية، وظلت تقض مضاجع العسكريين لمدة عشرين عاماً بعد ذلك، ثم ما لبثت ان نفذت ايضاً الى وعي الجماهير. ولربما كان لهذه الظاهرة دور ليس بالضئيل في حمل أعداد كبيرة من الناس على هجر المدن الامريكية والإنتقال الى الضواحي والأرياف في الخمسينات من هذا القرن. ذلك انَّ ما حدث لمدن مثل لندن (بانجلترا) وهامبورغ وبرلين (بالمانيا)

وطوكيو وهيروشيا (باليابان) أمر ليس في الوسع تجاهله. وساق الى حقيقة لا سبيل الى انكارها: وهي ان الحرب تأكل المدن، لذا وجب اخلاؤها. وانني على علم تام بأن هذه الفكرة من العسير البرهنة عليها. ومن يدري فلعل نمو الضواحي مردّه الى انتشار استعمال وسائط النقل الحديثة في وقتنا هذا، او ربما لاعتبارات تقديم الخدمات الحضارية المختلفة.

أما الامر الذي أخذ يحظى بالاهتمام مؤخراً، وهو أمرٌ لم ينل الإنتباه خلال الحرب العالمية الثانية الا بطريقة عابرة، فهو الاعمدة الهائلة السوداء من الدخان Smoke التي ارتفعت في سماء المدن المحترقة والتي لم تلبث ان دفعت بها الريح الى اسفل فأضفت على مغارب الشمس الواناً زاهية لأيام تلت. وكما هو معلوم فإن الذي يعطي الالوانَ للسماء عند الغروب إنما هو انحراف شعاع الشمس مخترقاً المواد العالقة بالغلاف الجوي للارض، المحيطة به كأنها غراب الليل Night raven، مثل السحب والغبار Dust والرماد البركاني والدخان المنبعث مما يحرقه الإنسان على وجه الارض خاصة بالمدن. واذا أنت أبصرت ذات يوم قرص الشمس وهي تغرب خلف صحراءٍ ما الى الغرب من مدن كالقاهرة والرياض والمدن الواقعة على اطراف الصحراء الكبرى وذلك عقب عاصفة رملية، فسترى وقتئذٍ ان السماء بدت وكأنها من اللهب الاحمر. ويصف «توماس بورز» هذا الأمر فيقول: انه حينما حلقت بيّ الطائرة فوق لونك آيلند Long Island في طريقها الى نيويورك فوقع نظري على الشمس وهي تغرب خلال مزيج من الوان مختلفة بين أصفر وارجواني وبنفسجي كانت تغطي سماء المدينة. وقيل لي أنه من العسير التصديق بان ثمة مخلوقات حيّة يمكنها التنفس في هذه الخلطة الغريبة. وواقع الأمر أن الكثير مما نظنه من عمل الطبيعة، انما هو من عمل الإنسان. واحدى الحجج التي أثيرت ضد خطة اخفاء الصواريخ «أم ـ أكس M-X» بوضعها وسط المخابئ بصحاري ولايتيّ نيڤادا ويوتا هو الغبار الذي تثيره عملية حفر قواعدها. والذي بلغ درجة من الكثافة Density عند الخندق الكبير الذي يبعد مئات الأميال من تلك

المواضع ان أضحى من العسير إبصار حافة الخندق من حافته المقابلة كما ذكر شاهد عيان.

والظاهرة عامة ومعروفة جيداً، فالبراكين التي تنفض رمادها في الجو تضيف العديد من الالوان الى مغارب الشمس على آلاف الأميال من مواضعها، والحرائق المنبعثة في الغابات الشاسعة التي تعطي اشجارها آلاف الكيلومترات والتي تحتوي على القطران والراتينج، يكون الدخان المنبعث منها أسود اللون زيتياً. ولقد غطى هذا الدخان ما يقرب من نصف مساحة الولايات المتحدة وانتشر عبر الاطلنطي عندما إحترقت غابات ولاية «ألبرتا» الكندية عام ١٩٥٠. وتم الكشف عنه باجواء بريطانيا بوساطة طائرة كانت تحلق على ارتفاع خمسة وثلاثين الف قدم، واختزل كمية الضوء المرئي وهبط حتى بلغ سطح الارض باوروبا الغربية. ومن طبيعة الدخان أنه يعلق جيداً بالهواء، خاصة الدخان المعتم المحمل بالسناج، فجزئياته ضئيلة الحجم وبامكانها امتصاص ضوء الشمس وتسخين الهواء المحيط بها، فيظل عالقاً في الجو على هيئة طبقة سميكة. وفي اثناء الحرب العالمية الثانية كثيراً ما عادت حاملات القنابل قافلة الى قواعدها وهي مغطاة بالسناج الذي التقطته على ارتفاع يتراوح بين العشرين والثلاثين الف قدم. اما الدخان الذي اندفع مرتفعاً من عاصفة النيران التي أطبقت على هيروشيما، وهي العاصفة التي أحرقت خمسة أميال مربعة من المدينة فإن سبب اندفاعه الى طبقات التروبوسفير Troposhere العليا هو الحرارة الشديدة التي تجمعت في آن واحد من النيران التي التهمت المدينة مضافاً اليها كرة النار Fire ball الناشئة عن انفجار القنبلة الذرية نفسها. ولقد وصف من بقوا على قيد الحياة من سكانها الظلام الدامس وموجة البرد الشديدة التي وجدوا أنفسهم في خضمها وذلك في شهر صيفي هو أغسطس. وبالاضافة الى هذا تكاثف البخار Water Vapor وسقط على الارض في صورة أمطار سوداء من أثر السناج «السماد» الذي التقطه الماء خلال سقوطه. وقد ألّف فيما بعد روائي ياباني يدعى «مسوجي ابوزي» Masuji

Ibuse قصة بعنوان « المطر الاسود » The black rain تتعلق باحداث قصف هيروشيما، وهو يرمز بهذا العنوان الى شناعة ذلك الحادث. وقد لا يكون شنيعاً في وقتها بسبب انشغال الأذهان آن ذاك عنه بعواقب الإشعاع الذري Nuclear Radiation. وحقيقة الأمر ان الخطر الذي يهدد مناخ العالم والمتمثل في الدخان المتصاعد من المدن المحترقة قد أخذ وقتاً طويلاً لينفذ الى أذهان الناس، فكان اشبه « بالخطاب المسروق » The purloined letter في القصة التي تحمل ذلك العنوان للكاتب الامريكي « ادجار آلن پو » Edger Allen Poe حيث كان الخطاب المفقود قابعاً على مرأى من الجميع دون أن يفطن اليه أحد.

فأثناء زيارة بول نيتسه P. Nitze الذي شغل الى عهد قريب منصب المندوب الامريكي الى مفاوضات نزع السلاح مع الروس والذي كان يشغل آنذاك منصباً هاماً في اللجنة التي أعدت التقرير الخاص بالحرب العالمية الثانية، قام بزيارة الى اليابان في شهر اغسطس ليقوم باعداد التقرير. ثم كلف « فارلي » Farley الذي دوّن التقرير الذي اعدته ادارة القصف الجوي الاستراتيجي الامريكي، بأن يدون قصة احداث هيروشيما وناكازاكي. ان فارلي وان لم يزر المدينتين على الإطلاق الا أنه اعتمد على مادة وفيرة لم تترك شاردة ولا واردة الا وعالجت الكلام عليها - مثل ارتفاع درجة الحرارة اثناء الانفجار، وفغر الافواه Open Mouthed المختلفة للانفجار الذري، والفشل الذريع الذي واجه عمال مكافحة الحريق ما عدا الدخان. فلم ترد اشارة اليه. مثلاً لم يهتم احد بتحديد كميته، واين ذهب، ولكم ظل عالقاً بالهواء - كل هذا بدا وكأنه لا يستحق الاهتمام.

واول دراسة جدّية للدخان الناشئ من اندلاع حرب ذرية قام بها عالمان أحدهما من المانيا الغربية ويدعى بول كروتسن P. Crutzen والآخر أمريكي ويدعى جون بركس J. Briks وظهرت في عدد خاص من « أمبيو » Ambio وهي مجلة أكاديمية العلوم السويدية وذلك في شهر يونيو من عام ١٩٨٢.

ويفترض كروتسن وبركس ان حرباً ذرية كبرى ستسبب في إحراق حوالي الخمسة في المئة من العشرين مليون كيلو متر مربع من الغابات الموجودة بالمنطقة المعتدلة من الكرة الأرضية. وقد بيّنت تقديراتها ان الدخان المنفوث من هذه الحرائق الهائلة، شأنه شأن الدخان المنبعث من فوران البراكين وإن كانت كميتهُ ستفوق ذلك بكثير، سيهدد مناخ الارض عن طريق تسخينه لطبقات الجو العليا وتبريده لسطح الارض.

وثمة طرف لهذا الاكتشاف يتمثل في النظرية التي ظهرت عام ١٩٨٠، ومفادها أن الانقراض الجماعي لانواع الدينوصورات Dinosaur وهو حيوان ضخم من الزحافات او الدينوثير Dinothere وهو حيوان ثديي منقرض شبيه بالفيل، أو النمر المسيّف الاسنان Saber-toothed tiger الذي حدث بالارض قبل خمسة وستين مليوناً من السنين وذلك على الحد الفاصل بين العصر الطباشيري والحقبة الجيولوجية الثالثة إنما كان نتيجة لإرتطام جرم سماوي تراوح قطره بين ستة او سبعة أميال بسطح الارض وذلك في صدمة هائلة دفعت بالغبار فأرهجت دقائقه الى طبقات الجو العليا وساق الى حالة من الظلام استمرت لعدة اشهر فبردت وجه الأرض واختزلت ضوء الشمس الى ما دون المستوى الذي تحدث فيه عادةً عملية التمثيل الضوئي Photo synthesis التي تعتمد على اشعة الشمس Sun Light والمسؤولة عن بقاء النباتات الخضراء. وكل أثر من هذه الآثار مهلك في حد ذاته. ناهيك اذا ما تضافرت معاً لأنها عندئذٍ ستسرع بعملية انحلال النظم البيولوجية Analaysis of Biological System التي تقوم عليها الحياة بالارض. ومهما بلغ الجدل حول الآراء التي تفسر نظرية انقراض الدينوصورات، غير أن اجماع الآراء تركز حول نقطة معيّنة ـ هي ان نفوذ الحطام او الشظايا Spalls الى طبقات الجو العليا من شأنه أن يسوق الى غلبة الظلام وتزايد البرد على وجه الارض.

فماذا يردُّ الخبراء على المزاعم القائلة بأن آلاف الحرائق بمئات المدن الكبرى قد تعني كارثة كبرى بالنسبة للعالم اجمع خصوصاً وان نفراً منهم

يعلمون تمام العلم أنهم انما يخططون لما هو أسوأ من ذلك بالنسبة للروس. غير أنه في حالة استثناء المدن من الحرب فأنه لن تتبقى خطة ما. فالخيار اذن بين أمرين لا ثالث لهما؛ أما أن تتمسك أمريكا بالخطة وتعرّض الأرض لكارثة بيئية Ecology محققة او أن تتخلص من التخطيط للحرب وتحاول التفكير في شيء آخر تفعله بالتسعة آلاف وخمسمائة من الرؤوس النووية الاستراتيجية الموجودة في أيديها - أما فيما يتعلق بالصورة التي ستتخذها حول الحل الأخير فهو أمر من العسير التكهن به، ذلك ان الأسلحة النووية Nuclear Weapon جيدة فقط من أجل اشعال النيران على مدى مئات الكيلومترات المربعة وكشط المدن بحالها وعن بكرة أبيها من وجه الأرض. واذا حدث وان منع الناس من الإقامة بالمدن فانه لن يبقى الكثير لقصفه بالأسلحة النووية - ولعل جمهور المواطنين قد يجد نفسه في عناء لكي يتفهم طبيعة هذا الخيار المتعنت غير ان المخططين الحربيين لم يجدوا كبير عناءٍ في تفهم واقع المسألة، وهو أنه اذا كان الدخان المنبعث من المدن المحترقة يمثل مشكلة حقيقية فان خططنا الحالية لخوض غمار حرب نووية انما تعني اذن انتحاراً بمعنى الكلمة للدولة التي تضرب اولًا، حتى وان لم يرد العدو بالمثل - على أن المخططين العسكريين لهم احصاءاتهم التي يدخل منها في نطاق الممكن وغيرها في نطاق غير الممكن. فقد نشر زميلان في معهد «هدسون» مقالة عنوانها «النصر محك» في صحيفة «السياسة الأجنبية» ختماها قائلين «على رئيس الولايات المتحدة ان لا يقوم بضربة نووية استراتيجية ضد الإتحاد السوڤياتي إذا كان من المحتمل ان تتوقع الولايات المتحدة ان تشمل اصاباتها ١٠٠ مليون، أو ما ينوف على ذلك من المواطنين الأمريكيين». ولكن، حسب رأيهما، اذا استطاعت أن تحدد خسائرها بـ «٢٠ مليوناً او ما يزيد من السكان» فعند ذلك يكون للحرب النووية ما يسوغها. ولكن تلك الخسائر قد تكون رقماً أسُّهُ (قوّته الرياضيّة) منقطع النظير في كل الحروب الماضية.

«الشتاء النووي»

وهكذا تجمعت التفاصيل، شيئاً فشيئاً، كالنزاع حول انقراض الدينوصورات، والدراسات المتعلقة بعاصفة الغبار بكوكب المريخ Mars والتفهّم المتزايد من طرف علماء المناخ لاثر ثوران البراكين على الطقس ودراسات ظاهرة تفكك الاوزون Ozone . اقول أن جميع هذه التفاصيل مهدت السبيل الى فهم اهم المسائل قاطبة، وهي أن الدخان اذا ما تجمعت منه كميات كبرى وارتفعت الى قدر كاف في الغلاف الحيوي، فإن من شأنها أن تقذف بالكرة الارضية في حالة من الظلام الدامس والمتجمد.

ولقد بدأت في واشنطن وموسكو وبعض الدول الاخرى، عقد مؤتمرات ومناقشات تلفزيونية. وقامت الاكاديمية الامريكية بقيادة الباحث (برايان تون) بعمل دراسة أكدت على ان استخدام الاسلحة النووية بشكل مكثف ستؤدي الى احداث « شتاء نووي » Nuclear Winter الذي سيهدد اعداداً هائلة من النباتات والحيوانات بما في ذلك الانسان بالفناء.

ولقد كان تركو Turco احد الخمسة الذين شاركوا في تدوين البحث بصدد الشتاء النووي الذي رأى النور في ديسمبر ١٩٨٣ . ومصطلح الشتاء النووي انما ترجع صياغته اليه هو. ويرى تركو ان الحرب النووية تهدد البشرية وغيرها من المخلوقات بكارثة تامة.

ولقد نشر تركو مع العلماء الاربعة الآخرين، بحثاً بمجلة « ساينس

Science » أكدوا فيها ان الدخان الذي سينبعث مما لا يتجاوز الالف حريق بمئة مدينة كبرى سيغطي نصف الكرة الشمالي بطبقة من السناج ستظل باقية لوقت كاف فتجلب « الظلام في منتصف النهار » Darkness at Noon وهذا هو عنوان لاحدى روايات الكاتب المشهور آرثر كوستلر A. Koestler، او بالمطر الاصفر الذي سقط على هيروشيما كما وصفه احد الناجين من الكارثة. ولكن العلماء يبغضون التعبيرات التي تفتقر الى الدقة العلمية ومنها مخاوف الجماهير وتصورها الخاطئ للكارثة النووية.

وما يزال البعض في واشنطن يؤكد تلك الآراء، ويقول: ان تبادل الضربات التكتيكية التعبوية (tactics) في أوروبا مثلًا لن يكون آخر قرع لناقوس الحياة في الارض.

وقد بحث فريق من خبراء الأمم المتحدة في مخلفات انفجار يعادل (٥٠) مرة قنبلة هيروشيما ويقع في مدينة تعد مليون نسمة. ستؤدي القنبلة لحظة دوي الانفجار بحياة (٣٦٠) الف انسان في الحال وتجرح (٩٠) ألفاً، اما الذين نجوا فسيحسدون الاموات لأن عدداً لا يحصى منهم سيقضي نحبهُ وسط عذاب شديد خلال ساعات أو أيام أو اسابيع قليلة ولن يكون هناك حياة على وجه الأرض.

ثم ان انفجاراً بهذا الحجم، سيبعث كميات هائلة من الغبار والاجزاء المشعة التي تتنقلها الرياح وحركة الأرض الى مناطق بعيدة، ان كل انفجار يحصل، أينما كان، يطلق الى الفضاء كميات ضخمة من الغبار وهذه المواد تسمى بالمتساقطات النووية Fall-out ويعتبر بعض العلماء الامريكيين ان هذه الحالة ستشابه الحالة التي ظهرت قبل (٦٥) مليون سنة حينما سقط على الأرض (نيزك) عملاق وقضى على نسبة ٩٠ بالمئة من عالم الحيوان، وهي نظرية انقراض الدينوصورات التي ذكرناها عندما تحدثنا عن الحرائق واعمدة الدخان. ولكن هذه المرة سيخلو العالم من الغابات والأعشاب والزهور وتغريد الطيور ومن الالوان والروائح، ثم ان ذلك سيسوق حتماً

الى اضفاء ليل طويل من الصقيع يقضي على الجزء الأكيد من المجال الحيوي لكوكبنا كما يقول (باول كروتسن P. Crutzen). كما تؤدي تلك الحالة الى إطباق الصمت (صمت القبور).

وثمة جانب آخر، يوضح تلك القضية. فلقد دخل جهاز الفضاء الامريكي «مارينر التاسع» في مدار حول كوكب المريخ وشرع يرسل بصور فوتوغرافية وضح منها أن ذلك الكوكب تغلفه تغليفاً تاماً طبقة كاملة من الغبار مبعثها عاصفة مريخية هائلة تجعله غائماً dull باستمرار فيبدو كأنه منطقة غبارية dust bowl.

ولقد أمضى كارل ساجان Carl Sagan الفلكي المعروف وغيره من العلماء الذين كانوا يتابعون نشاط ذلك الجهاز، أمضو ثلاثة أشهر في دراسة عواصف الغبار هذه في انتظار أن يصفو جوّ المريخ. وتبيّن لهم ان الغبار العالق بالطبقات العليا لغلافه الجوي تميل الى امتصاص ضوء الشمس وتسخن حرارة الجو، هذا بينما يظل سطح الكوكب نفسه في حال من العتمة والبرودة الشديدة. واستناداً الى تلك المعلومات يضع هؤلاء العلماء وغيرهم تقارير مثيرة للهلع حتى في حال انفجار أقل من واحد بالمئة فقط من ترسانات الاسلحة النووية المكدّسة في العالم وسيحدث ذلك «شتاء نووياً» ثم تلي الضربة النووية شهور من الظلام والحرارة المنخفضة، وان الحركة الشاملة للغبار المتطاير بشكل حلزوني تكوّن مرشحة او مصفاة لا تخترقها سوى نسبة مئوية ضئيلة من نور الشمس الطبيعي لتصل الى سطح الارض، وسيستحيل نمو النبات حتى في الصيف وسيسود نصف العالم طول اشهر طقس شتائي قاسٍ تهبط فيه الحرارة الى دون ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر.

ان هذا وحده من شأنه أن يتسبب في موت أُناس لا يحصى عددهم، ناهيك عن تأثيرات العصف ووميض الحرائق والتلوث الشعاعي والمائي وغيرها من الاهوال التي لم يتصوّرها الانسان.

ان النماذج التي وضعها كارل ساجان وزملاؤه لوصف سلوك عواصف الغبار بالمريخ أنها تنطبق تماماً مع آثار ثوران البراكين بالارض.

واكبر الانفجارات البركانية التي حدثت بسطح الارض وفقاً لدراسة قام بها المعهد الاسميثوني Smithsonian Institution بواشنطن وقع في عام ١٨١٥ بجزيرة سمباوه Sumbawa بأرخبيل اندونيسيا فقد أعقب أياماً من اهتزازات الارض دويّ هائل اشبه باصوات المدافع صحبه انفجار مريع إقتلع قمة جبل تامبورة Tambora البالغ ارتفاعه اربعة آلاف ومئتي قدم، وأرسل بخمسة وعشرين ميلًا مكعباً من الاتربة والصخور في طبقات الغلاف الجوي للارض ـأي ما يعادل مئة مرة المادة التي لفظها بركان «سانت هلنز» [بغربي الولايات المتحدة] Volcano أو بركان ڤيزوف الذي دفن مدينتي هرقلنيوم وبومبي عام ٧٩ للميلاد. وقد بلغت كثافة الغبار أياماً من الظلام التام فوق منطقة عرضها اربعمائة ميل. ودفع ثـوران البركان بالحطام في الاستراتوسفير فدار حول الارض لعام أو عامين قبل ان يجد طريقه الى سطحها، وقدر العلماء أن سحابة الغبار المنبعث منه قد تسبب في إبتراد عام لسطح الارض بلغ في معدله ستة أعشار درجة مئوية. ولعل هذا لا يبدو شيئاً كبيراً، غير ان نتيجتهُ بالولايات الشمالية الشرقية للولايات المتحدة ما زالت قابعة في الذاكرة على أنها «السنة التي لم يعرف فيها الصيف». فقد استمر الصقيع على مدار السنة بتلك المنطقة وساق الى برد شديد تسبب في أضرارٍ بليغة للمحاصيل الزراعية مما زاد في ارتفاع اسعار القمح بصورة لم ير مثيل لها على مدى المئة وخمسين عاماً القادمة، أي حتى عام ١٩٧٢.

اما بأوروبا فقد أدت برودة الطقس التي حدثت نتيجة لذلك الى ظهور المجاعة بمناطق عديدة، ولعلها هي المسؤولة عن إنتشار وباء التيفوس بإيرلندا والجلترا بل ولربما أسهمت بطريقة غير مباشرة في بلوغ وباء الكوليرا اوروبا في الاعوام الثلاثينات من القرن التاسع عشر.

ان الأسلحة الذرية اذا ما جرى تفجيرها في الجو بالذات فإنه ينتج عنها موجة حرارية شديدة تؤدي الى اشعال النيران في مساحات عريضة في آن واحد. وأية مدينة تتعرض للهجوم بأسلحة نووية ستحترق، أضف الى هذا ان الكثير من هذه المدن المحترقة ستولد عواصف نارية ترفع أعمدتها الهائلة جسيمات السناج الى طبقات الجو العليا فتبقى هناك لبعض الوقت قبل ان تجد طريقها الى الارض. وستجد طبقة الدخان المتصاعد من المحترقة طريقها سريعاً الى العروض الوسطى لنصف الكرة الشمالي بل ومن المحتمل أن تنفذ الى المنطقة الحارة حول خط الاستواء، الذي لعلل مختلفة واسباب كثيرة، سيكون اكثر حساسية للتغيرات التي تطرأ على الضوء والحرارة. وسيؤدي الظلام على سطح الارض الى تخفيض reduce متوسط درجة الحرارة السنوي لها مقداره ٤٠ درجة مئوية لعدة أشهر، فإن اشتعلت النيران في الربيع او الصيف المبكر فإن درجات الحرارة ربما انخفضت الى ما دون الصفر خلال أشهر تموز وآب وسبتمبر. فيغلب الظلام في منتصف النهار على البيئة كما هو الحال عادة مع الليالي المقمرة. وأثر effect هذا «الليل» الطويل الشديد البرودة على البيئة النباتية ـ وكل أنواع الحياة ـ انما يعتمد في نهاية الأمر على التمثيل الضوئي للنبات ـ من العسير التكهن بنتائجه بالتفصيل، وإن كان من المؤكد أنها ستكون مأساوية. واذا اخذنا مثالاً مبسطاً لما تخلقه سحابة من الدخان على الارض، فسنجدها في حالة الارتياح التي تغمر الإنسان في يوم قائظ مشمس شديد القيلولة من شهور تموز عندما يحتمي من وهج الشمس الشديد في منتصف النهار بظل وارف لشجرةٍ من اليوكالبتوس Eucalyptus أو حتى بشمسية umbrella على البلاج.

وفي محاولة لتقدير آثار الدخان الناتج عن حرب نووية فان أهم سؤال يتبادر الى الذهن هو كم عدد النيران التي ستشعل؟ والجواب على هذا السؤال سر عسكري، وهو يوجد في زوايا الخطط الحربية War Plans المتعلقة بتحديد أهداف الاسلحة النووية حسبما رسمها المتخصصون

العسكريون بكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. ان هذا السر الذي يقود الىٰ صمت مطبق من طرف العسكريين، ليس معناه بأي حالٍ من الاحوال، عدم معرفتهم له. والسبب بسيط للغاية، وهو أنه لو ثبت صحة الشتاء النووي وهم لم يعرفوه فان هذا سيؤدي الىٰ تسفيه كل فكرة أتىٰ بها أولئك المخططون خلال أربعين عاماً من جهد مضن لابتكار طريقة معقولة لمواجهة حرب نووية.

«تفكيك الأوزون»

الاوزون Ozone ضرب من الاوكسجين وهو غاز ثقيل أثقل من الاوكسجين العادي بمرة ونصف. ان الاوزون النقي غاز مميت ولكن قليلاً منه يجعل الهواء أكثر انتعاشاً وفائدة، وهو يتكوّن بفعل الفعالية الكهربائية في الجو لذا نجد أن التنفس يصبح اكثر سهولة بعد العاصفة الرعدية. ومن صفاته أنه غاز نشيط تماماً سرعان ما تختفي رائحته بفعل تفاعل جزئياته مع مواد كيميائية كثيرة ضارة للانسان، وبذلك ينظف الاوزون الهواء ويقتل مكروباته المعدية.. وعلى الرغم من أن كثافة الاوزون في الطبقة الاوزونية ـ وهي طبقة من طبقات الجو ترتفع عن سطح الارض بحدود ١٥ ـ ٤٠ كيلو متراً ـ منخفضة جداً الا أن السماء تدين لهذه الطبقة بلونها الازرق والا لكان لونها ارجوانياً فاتحاً. وعلى أية حال فان الميزة الاساسية للطبقة الاوزونية تتمثل بكونها درعاً أو حزاماً واقياً يوفر الحماية الضرورية من سيل الاشعة فوق البنفسجية Ultra violet التي تلقيها الشمس على كوكبنا، وذلك لأن الزيادة في هذه الاشعة تعني ارباك الوظيفة الجنينية للجسم لذا فإن الاختفاء الكامل لطبقة الاوزون يعني نهاية جميع الحيوانات والنباتات على الارض.

لأن الكميات الضئيلة من الاشعة فوق البنفسجية تسبب التهاب جلد الإنسان، بينما تتسبب الكميات الأقوى والمباشرة في سرطان الجلد وفقدان البصر أو اعتام العين.

فما الذي يهدد هذا الدرع؟ لقد دلّل العلماء في اوائل السبعينات على الفلورو كاربونات Fluoro Carbons المستعملة في ملء العلب والاوعية المختلفة بطريقة الضغط (أيروسول) Aerosol بدأ بمعجون الاسنان ومعجون الحلاقة وفي صنع عدد من المستحضرات الكيمياوية التي يستعملها الانسان على نطاق واسع كمبيدات الحشرات ومستحضرات التجميل وتصفيف الشعر ومروراً بمواد تنظيف الأفران والمواد المزيلة للروائح الكريهة وحرق المركبات الهائلة من البلاستيك التي تولد Methyl Chloride والكميات الكبيرة التي تتبخر من Carbon tetra chloride المستخدم في الاصباغ والـ Ferons المستخدم في معامل التبريد. كل هذه عوامل ـ بالاضافة الى عوامل اخرى ـ من شأنها الحاق الاذى والضرر الكبير بالطبقة الاوزونية التي تحيط بالكرة الأرضية وهي ذات أهمية حيوية جداً بالنسبة للحياة والتي ما وجدت الا لديمومتها على الارض.

لقد دفع النزاع الذي احاط بالفلورو كاربونات الى القيام بعدد من الدراسات المكثفة كما جرت العادة، دللت على ان الفلورو كاربونات تنفذ فعلًا الى طبقات الجو العليا فتعمل على تفكيك طبقة الاوزون. أما الرأي القائل بان العلب والاوعية المضغوطة بالايروسول بامكانها ان تطلق كميات كافية من الفلورو كاربونات لتصبح خطراً بالنسبة لطبقة الاوزون فهو رأي لم يثبت بصورة قاطعة، وإن كان النزاع حوله قد لفت النظر الى مشكلة اخرى ـ هي ميل الانفجارات النووية الحادثة في نطاق الميغاطن الى اطلاق كميات كبيرة من أوكسيدات الاوزون ودفعها الى طبقة الاستراتوسفير حيث تعمل مثل الفلورو ـ كربونات على تفكيك طبقة الاوزون.

وفي عام ١٩٧٥ نشرت الاكاديمية الوطنية للعلوم (NAS) National Academic Science دراسة كبرى بعنوان «الآثار البعيدة المدى لتفجيرات الاسلحة النووية على نطاق عالمي» Long-term Effects of Multiple

Nuclear-Weapon Detonations . كانت خلاصتها ان الاحتراق الناتج عن تفجير عشرة آلاف ميغاطن في نصف الكرة الشمالي قد يؤدي الى نقص الاوزون بنسبة عالية تصل الى ٧٠ ٪ ويمتد الى نصف الكرة الجنوبي ايضاً ولكن بنسبة أقل تصل الى ٤٠ ٪ وان ذلك يزيد في كمية الاشعاع فوق البنفسجي الواقعة على سطح الارض بدرجة خطيرة. وان هذا التأثير سيستمر لعدة أعوام قد لا تقل عن الثلاثين لكي يعود الاوزون الى منسوبه الطبيعي.

وتجدر الإشارة الى ان الولايات المتحدة وكندا والسويد والنرويج والدانمارك قد حظرت منذ سنوات انتاج مادة الآيروسول والفلورو كاربون (١٢) فضلًا عن حظر استعمالها. ولكن الانفجار النووي يعتبر المدمر رقم واحد للطبقة الاوزونية لذلك فإن حماية تلك الطبقة يتمثل في اجراءات منع الانفجارات النووية وايجاد وسيلة لإتقاء شره.

هل يعلم
رؤساء أمريكا
المصير ؟

حكىٰ أحد الصحفيين منذ بعض الوقت، قصة قال انه سمعها من شخص كان قد سمعها هو الآخر من أحد معاوني الرئيس السابق جيمي كارتر بمجلس الامن القومي (NSC) وخلاصتها أنه لما اجتمع كارتر بالرئيس المنتخب الجديد رونالد ريغان عقب فوز الاخير في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٨٠ (الفترة الرئاسية الاولىٰ لريغان)، وذلك لبحث تفاصيل الانتقال الطوعي من حكومة الىٰ حكومة جديدة، ارتأىٰ لكارتر أن يستغل هذا اللقاء ليوضح لريغان ماذا يعني في حقيقة الأمر «الضغط على الزر» [اي الشروع في الحرب النووية]. ووفقاً لمعاون كارتر ذاك، فإن كارتر فصل القول حقاً في الموضوع. كم عدد الاسلحة وما هي اهدافها والصعوبات التي تتجاوز طاقة البشر في محاولة تتبع مسير القتال. وحظ الرئيس السعيد الذي سيجد نفسه في الهواء على متن طائرة القيادة بحيث لن يتمكن من الهبوط منها بأية حالة من الاحوال، كما وأنه لن يسمع في المذياع سوى التشويشات الجوية Static. ولما نفذ هذا الوضع المرعب الى ذهن ريغان غادر الاجتماع يكسو وجهه شحوب الموتىٰ وهبطت روحهُ المعنوية. فقد فطن أخيراً الى معنىٰ الحرب النووية وعواقبها الشنيعة، وهو أمر لم يكن يدر بخلده حتىٰ قبل ذلك الاجتماع.

والقصة طريفة في حد ذاتها، مع أنها اليمة. وأنا واثق بأننا جميعاً نتمنىٰ

لو انها كانت صحيحة، غير أنه من المؤكد في اعتقادي أنها ملفقة. فقد ترامى الى اسماعي روايات عديدة من نسيجها وكميتها تتعلق برؤساء ومسؤولين كبار أخر وقد طرأ لي في أخر الامر أن أطلق على مجموعة القصص من هذا النوع اسم اسطورة الرئيس المرعوب وهي على كل حال، ومع اختلاف ظاهري، لا تبتعد عن الزوج المخدوع.

ومنحى هذه القصص واحد على الدوام، ويتعلق بفرد بلغ أعلى المناصب ويتمتع بثقة لا حد لها في رأيه تبلغ درجة الغرور وعدم المبالاة. ولكنه لا يلبث أن يتعرض لشرح من هذا القبيل، الذي أتيح لحاكم بلاد العم سام، فتحصل له المعرفة بجوهر المشكلة. عند ذلك يثوب اليه رشده، وتعتريه هزة عنيفة في معتقداته. كل هذا يقف دليلًا على أن اللاوعي الجماعي بواشنطن، حيث يجري بصورة رئيسة سرد أمثال هذه القصص، انما يحتاج الى ضرب من الطمأنينة والثقة في أن الاشخاص الذين يتسلمون قمة المسؤولية يفهمون حق الفهم طبيعة المخاطر التي يواجهها العالم.

ومع ذلك فهم في كبرياء وغرور اهوج. انهم يحيون المسؤولية حياة على الأسطح، لا تعرف الاعماق. ومن هنا تراهم جاءوا عبئاً على مسيرة السلام اكثر مما جاءوا ليكونوا محركاً ودافعاً لها نحو الامام.

ان هذا الرئيس، كثرت جرائمه، وظلت تتفاقم فظائعه.. حتى أراد -باسم المنصب الذي يتقلده- أن يعبث في الارض فساداً، بغير عقاب يردعه ويفيقه مما هو فيه.

فالرئيس الأمريكي، ترومان، الذي أمر بالقاء القنبلة الذرية الاولى على هيروشيما والثانية على ناكازاكي مثلًا، وما خلفه ذلك من ضحايا وجرائم حرب بالمعنى الذي انطلقت منه هيئتا محاكمات نورمبرغ وطوكيو، مع ذلك لم يحاسب، بل ولم يعتبر مجرم حرب يستحق المحاكمة مع أنه انسانياً على الاقل يستحق ذلك. انه كان رئيس دولة منتصرة في الحرب ولا تعليل سوى هذا... كذلك لا بد من أن نلاحظ أنه في هذه المحاكمات لم

يحاسب أي من القادة السياسيين او العسكريين من الحلفاء رغم ان بعضهم ارتكب جرائم حرب وفقاً لواقع تلك المحاكمات.. والسبب الذي يقف وراء براءتهم، هو أنهم منتصرون. فما أعجب منطق المنتصرين!!

ان على امريكا وروسيا، اليوم، لكي تبررا مشروعيتها، أن تكونا معصومتين. والعصمة، فيما نرى ونعتقد، أمر غير دنيوي. فمن أينَ نأتي برجال رزقوا العصمة وركبوا بحيث لا يقترفون اي خطأ؟ اما اذا كان هؤلاء يولدون بمحض المصادفة، ويتعرضون فيها الى العصمة، ويقفزون بحكمها الى قمة السلطة، فذلك أمر.. ان صح وقوعه ـ لا نناقشه أصلاً، لانه من نظام مفارقة للطبيعة.. اذ ليس في الناس ـ بعد الانبياء ـ منزه عن المعاصي، بل الكل خطّاؤن وخير الخطائين التوابون والمتعظون.

وعندما نناقش هذه الصفوة ـ كبشر ـ نقول لهم، انكم ما دمتم تعيشون على الارض فلا ريب عليكم، اذن، ان تكونوا عندما تفكرون، اكثر الناس رصانة وابعدهمَ عن المزاج والعبث ومما لا شك فيه، أن اسوأ العبث، هو أن تعبث دون أن نعرف اننا نعبث! والانكى من ذلك، أن نعبث في أمر سيكون فيه نهايتنا وقريب اجلنا!!

بيد أن قرائن الاحوال تشهد بأن الواقع انما يخالف هذا تمام المخالفة: فلعله باستثناء الرئيس كارتر الذي وجدت لديه شخصية غير عادية لاستيعاب التفاصيل التقنية، فانه لم يوجد بين جميع رؤساء الولايات المتحدة، بعد ميلاد القنبلة الذرية، من فهم جدياً وبدقة ماذا يعني نشوب حرب ذرية. وكل ما عرفه أيزنهاور متعلقاً بالخطة الموحدة للعمليات المسماة « سيوب Siop » والتي حصلت على الموافقة الرسمية الاولى في ديسمبر ١٩٦٠، والتي كانت ترسم للقيام بهجوم شامل على الاتحاد السوفياتي يستعمل فيه اربعة آلاف من الاسلحة النووية يجري اطلاقها في « ضربة واحدة » شاملة، اي بكل ما هو موجود لدى امريكا، وذلك بكبسة زر واحدة!!

ولكل ذلك الذي عرف عن «سيوب» الاولى، انما كان نتيجة للشرح الذي قدمه له جورج كستيا كوفسكي خلال التسعين دقيقة التي اعقبت رحلته الى -اوماها- في نوڤمبر ١٩٦٠- وشيء مخجل جداً ان يرتضي أيزنهاور لنفسه أن يتربع على رئاسة البيت الابيض وان يعتمد على كلام مستشار عسكري كان كلامه بصدد اربعة آلاف هدف خلال تسعين دقيقة فقط.. ومما لا شك فيه أن الوقت الموزع على مساحة الاهداف، لا يكفي الا في حالة كونه مقتضياً للغاية.. أليس ذلك شيئاً معيباً؟!

ولقد حث البعض الرئيس كنيدي في الايام الاولى لتوليه السلطة بأن يطالب بالقاء نظرة على «سيوب» ولكن هيئة اركان الحرب المشتركة أثنته عن ذلك بأن ذكرت له انها تقنية Technical للغاية لأنها تتعلق بمسالك الطائرات وأساليب تزويدها بالوقود، ومسارب الدبابات اثناء المناورة والتقدم، مواقع الاهداف، لحظات بلوغها والدوائر المتقاطعة للطائرات اي-٩٥ E 95، وما شابه ذلك أما ليندن جونسون Lyndon Johnson فكان يعتريه ضجر شديد بالاستراتيجية والعمليات السوقية وكان ذهنه مشغولاً تماماً بحرب ڤيتنام.

ووفقاً لمن شاركوا في الاجتماعات التي جرى فيها مناقشة الخطط الحربية فإن ذهن ريتشارد نيكسون R. Nixon كان يسرح به بعيداً عن الموضوع. ويقدم لنا الأميرال «المو زمڤالت Elmo Zumwalt» رئيس العمليات البحرية اثناء رئاسة نيكسون فكرة عن اجتماع مجلس الامن القومي تم عقده عقيب توقيع نكسون على «مذكرة القرار رقم ٤٢، للأمن القومي» في يناير ١٩٧٤ وكانت هذه واحدة من اولى الوثائق التي اطلق عليها اسم «وثائق خوض غمار الحرب» والتي شكلت تحولاً تدريجيًّا في الاستراتيجية النووية الامريكية على مدى الاعوام العشرة الاخيرة. فقبل ان يتم التوقيع على هذه الوثيقة كانت سيوب تحتوي على اربع خطط أو خيارات اساسية للحرب، يتضمن اصغرها جميعاً استعمال الفين وخمسمائة رأس ذري. وفيما بعد اعدت هيئة اركان الحرب المشتركة لتحديد الاهداف الاستراتيجية

JSTPS (جي ـ اس ـ تي ـ بي ـ اس) خيارات متعددة بدأ بإطلاق بضع عشرات من الرؤوس الذرية وانتهاء بقصف عنيف يقضي على المجتمع السوفياتي بأسره ـ الأمر الذي كان يمثل على الدوام المرحلة النهائية لجميع الخطط الحربية للولايات المتحدة.

ويرى عدد كبير من النقاد ان الاستراتيجية المقابلة التي تم اعتناقها في الوثيقة ٢٤٢ تجعل من حدوث الحرب النووية امراً اكثر احتمالاً من العسير القول، هل كان هؤلاء النقاد مصيبين في رأيهم ام لا. غير أنه وفقاً لقول الاميرال زمقالت فإن نكسون لم تكن لديه البتة فكرة ما عن مغزى هذه الاستراتيجية الجديدة، كذلك وقع الرئيس الامريكي الذي خلف نكسون بعد فضيحة «ووترغيت» جيرالد فورد G. Ford في الأيام الأخيرة من رئاسته على وثيقة مماثلة تمسّ الاستراتيجية، ولكن لم تكن لديه فكرة واضحة عما كان يفعله، استناداً لرأي عدد من معاونيه بمجلس الامن القومي.

اما جيمي كارتر فقد كان حالة استثنائية كما سبق وان ذكرنا ـ فهو قد درّب نفسه، بإهتمام، على القيام بعدد من المناورات العسكرية بقاعدة القيادة وبعدد من أسس التعبئة السوقية. واستوعب جيراً اهمية وثيقته الاستراتيجية وهي الوثيقة رقم ١٥٩ التي تقدمت بمنهج خوض غمار الحرب خطوة أبعد من ذي قبل، وعززت من اهمية رفع المستوى القيادي ومستويات السيطرة على الوضع والمواصلات والوسائل الاستخبارية في متابعة سير القتال. أما رونالد ريغان فقد رجع المنهج الرئاسي التقليدي، وهو ترك التفاصيل لمعاونية.

وعلى مدى الاعوام العشرة لوجودها، تركت هيئة أركان الحرب المشتركة، الى حد كبير، لتقف على قدميها حتى تجد لنفسها استراتيجية تؤسس عليها خططها الحربية. فقد كانت التوجيهات من البيت الأبيض، او البنتاغون محدودة. وقد اشار البعض الى المكلفين بانتقاء الاهداف كانوا

يضطرون احياناً الى متابعة خطب رئيس الجمهورية وكبار معاونيه حتى يتمكنوا من تكوين فكرة يسيرون على هديها في مهمتهم هذه. غير انه منذ عام ١٩٧٠ جرى تطعيم التخطيط للحرب بشيء من العقلانية، فهو يبدأ الآن بوثيقة نكسون هي NSDM 242 ووثيقة كارتر PO59. أما ريغان فكانت وثيقته ولا زالت NSDD واعتماداً على هذه الوثائق كمرشد يقوم سكرتير الدفاع بتحضير مسودة أطول بعض الشيء تتضمن سياسته استعمال الاسلحة النووية NUWEP. هذه المسودة تفصل القول بشكل أطول على يد هيئة اركان الحرب المشتركة التي ترسل بها الى ـ أوماها ـ مقر JSTPS، حيث تجري مراجعتها مرتين في العام ضمن خطة سيوب.

فإذا ما تم الفراغ من اعداد الخطة المراجعة يقوم ضباط JSTPS بشرحها لرؤساء أركان الحرب، الذين يشرحونها بدورهم للسكرتير الذي قد يشرحها او لا يشرحها لرئيس الولايات المتحدة. وهكذا تقل عملية الشرح هذه بصورة حادة كلما ارتفعت تصاعدياً الى المراتب العليا بوزارة الدفاع الامريكي. حتى لم يبقَ لرئيس الولايات المتحدة الا التسعون دقيقة ويبدو أنها الحد الاقصى عند المستويات الاعلى من المسؤولين. ذلك يقود الى اطروحة مفادها، انه من المستبعد جداً ان احداً فوق مستوى هيئة اركان الحرب المشتركة JSTPS قد فهم تمام الفهم تفاصيل «سيوب» فكيف الحال، إذن، لرئيس الجمهورية وكيف يحق له وهو آخر من يعلم عن خطط الحرب بحمل الحقيبة السوداء واستخدام خط الهاتف الاحمر الذي به تستنفر القوة النووية الى حالة التأهب القصوى.

ان سيوب، وفقاً لعدد من المصادر، ليست عرضة للتنقيح او اعادة النظر في اية مرحلة من مراحل عملية التخطيط، حيث ان حجم ترسانة الولايات المتحدة هو الذي يحدد ابعاد مشروع لحرب كبرى ـ فإذا كانت حرب النجوم Stars War تعني فيما تعنيه اقامة محطات فضائية معلقة اضخم من (مكوك الفضاء) بعدة اضعاف تبقى سابحة في الفضاء كقواعد عسكرية

تنطلق منها اشعة ليزر واشعة الكترونية ولبروتونية واقمار صناعية وصواريخ نووية لتدمر اهدافها على الأرض او لتقتنص الصواريخ حالما تخرج من الغلاف الجوي. لأنه مثلما ان الفأر يسير نحو الفخ وليس العكس، فإن الصواريخ المعادية هي التي ستقع في متناول اسلحة الفضاء.

اقول اذا كان مشروع حرب النجوم يعني كل هذه التقنية العالية المتكونة من الليزر والكومبيوتر ذي القدرة الفائقة جداً لتجميع وتحليل المعلومات والبيانات بسرعة خيالية، فهل سيدخل هذا المشروع تعديلات في خطط سيوب، وهل سيعلم بتلك التعديلات رئيس الجمهورية أم انها ستمر على مكتبه مع البريد اليومي لتحظى بتوقيعه في وقت استرخائه واحتسائه شاي الصباح؟!

الرأي الصريح

هناك اتفاق او شبه اتفاق بين المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والسياسية على ان بناء العالم رغم عناصر وحدته يحوي داخله من التباينات ما يسمح بوجود انماط بنائية فرعية حقيقية بينها قدر من الملامح المشتركة إلا أن بينها ايضاً قدراً من الملامح المميزة لكل نمط فرعي تعكسه دراسات الجغرافيا والإيموغرافيا والايكولوجيا وعلم البيئة « Ecology » والدراسات السوسيولوجية. ومع أن هذا الإتفاق يكاد يكون بديهياً الا أن ثمة اختلافات افرزتها الظروف الدولية.

ولقد أسفرت حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية الى قسمة العالم لدول متقدمة ودول متخلفة. وبالنسبة للبشر ـ او تلك قناعتي ـ أنهم في خصائصهم الاصلية متساوون وينتمون الى نوع واحد هو الانسان العاقل « Homo sapiens » طبعاً هناك الذكي والغبي والنشيط والبليد، ولكن أقصد « الشعوب » بوجه عام، وأنهم يتفوقون أو يتأخرون لظروف موضوعية وتاريخية وبيئية.. الخ. وإن النظريات الهتلرية عن تفوق « الالمان » ثم ترتيب الاجناس درجات كلام فارغ وفاشستي واستعماري.

وعلى الانسان ان يكون موضوعياً.. وان الموضوعية الاهم في نظري هي أن يتآلف الإنسان مع اخيه الإنسان. أن هذه الموضوعية التي ادعو لها تكشف عن ذاتها في علاقات نظامية تسودها، حيث حرية الانسان وقدرته

وسيادة وضعه نسبياً على الاقل ترتبط الى حد كبير بادراك هذه الموضوعية وقوانينها ان المأزق النووي يشير ايضاً الى نقص في الوعي البشري الموضوعي حينما تتنافر جهوده ويعتريه تشرذم.

حيال ادراك اهمية الورطة الانسانية وانتفاء وجودها والى ضعف في الالتزام بحلها كشرط أساسي لجميع مقاصدنا في بناء مجتمع دولي جديد منيع يتحرر فيه الانسان من جميع العوائق الداخلية والخارجية التي تقف امامه في طريق نضاله وطموحه نحو هذا المجتمع. وبلغ الضعف والعجز حداً استحال معها على دول هذا العالم أن تجتمع في مؤتمر يضمها او يضم بعضها ويناقش مشكلاتها.. واهم هذه المشاكل على الاطلاق مشكلة الحرب النووية.

ولشد ما يحزنني ويفزعني في آن واحد هو بعض مجتمعاتنا وسطحيتها في تعاملها مع ادوات التكنولوجيا واشكالها المختلفة والانسان يعيش اليوم عملية سباق رهيب بين الجهل والعلم والتخلف والتقدم.. وهي عملية قفز سريع هدفه العلم. وهو قفز لا يكون في فراغ لأنه ليس قفزاً في هواء.. وانما هو قفز ادانه العلم بأدق جزئياته وتفاصيله، وعياً وحذقاً لفلسفته وليس نقلاً وتقليداً أعمى. ومهما توغلنا في السعادة المتآتية من التقدم التكنولوجي، تعود الاطعمة الهنية والنعم الكثيرة، واللحوم السمينة ـ مع القلق من المستقبل ـ سماً ناقعاً، وتصير اطعمتنا ترياقاً نافعاً، لان الدنيا المجموعة بسباق التسلح، مثل الماء الذي فيه التماسيح لا يستطيع الانسان وروده.

انا اريد الانسان سيداً للتكنولوجيا لا عبداً لها، يتحكم هو فيها ولا يستسلم لها.. اريده انساناً يحلق في سماء الانسانية على اجنحة من الايمان.. والخير.. والحب.. والجمال.. والسلام.

ان التقدم السريع الذي احرزه الانسان في ربع القرن العشرين فاق كل تصوراته واحلامه.. وبالرغم من التطور المذهل الذي بلغه إنسان هذا العصر في ميدان العلم فإنه بات يخشى ان يكون هذا التقدم على حساب

شيء آخر هو سعادته اذا ما اختل التوازن في خلق الانسان وأصابه الغرور وغلب الجانب المادي من الحياة على الجانب الروحي الذي يحكم تصرف الفرد وينظم سلوكه فالانسان الذي صفق للعالم الذي اكتشف البنسلين بات يخشى العالم الذي اخترع القنبلة الذرية والصاروخ ذا الرؤوس النووية وان منجزات التكنولوجيا الحديثة قد وضعت مصير الانسان على مقربة من أقصى نهائياته. فقد أصبح هذا المصير معلقاً بمجموعة من الازرار التي قد تتطلق في أية لحظة..

فالحروب القديمة التي نقرأ فيها في كتب التاريخ انما هي لعب الخيال ومباريات رياضية اذا ما قيست، لاسمح الله، بأية حروب قادمة مهما كان حجمها محدوداً صغيراً.. هذا اذا ما استبعدت الحروب العالمية الكبيرة.. لم يعد في العالم مستحيل.. كما لم تعد بقعة بعيدة من متناول أيّ انسان يملك قدرة التحكم بادوات العلم الحديثة المتطورة.. فقدر الإنسان يصل اليه اينما كان.. ومن المحزن حقاً ان اهتمام العلم منصب على ادوات الدمار أكثر منه على ادوات البناء والأعمار.. فالى جانب الاسلحة الذرية هناك الاسلحة الجرثومية واسلحة التأثير على اجهزة الانسان العصبية.. وغير ذلك مما لم يكشف النقاب عنه.. على ان ذلك كله سيبقى رهن الانسان القادر على ادارة دفة حياته كما يشاء.

ان معرفة معمقة لما يحدث تردنا الى تأمل واقع هذه الشعوب التي حفرها اعصار العالم الصناعي المتقدم سواء فيما مثلتهُ او تمثل لعبة الامبريالية او ما يخلفه الذهول غير المتوازن في المجتمع العصري الذي جعل اسس هذا العالم، الذي اعتاد السكون، تهتز دون أن يهتدي الفرد فيه الى هوية جديدة او قوام جديد.. فتراه هائما على وجهه لا يدري أين طريق الخلاص؟

وذلك القلق مدخل خطير.. وعندما نقاسي من مرض ما، تمتد معاناتنا فترة من الزمن، قد تكون اياماً او أسابيع وقد تطول أشهر او سنوات..

غير أنها لا تعد شيئاً كبيراً امام المعاناة من مستقبل هذه الارض والاسلحة عليها، التي تمتد عبر أجيال واجيال، وتبقى كالسيف المسلط تهدد العائلة لدى كل حمل وعند كل ولادة.

ان الاخلاق أصل وركن من الاركان التي يقوم عليها كل مجتمع انساني، هذا لا شك فيه.. ومجتمع بغير أخلاق هو مجتمع فاسد. هذا ايضاً صحيح. والانحراف الاخلاقي جزاؤه ازدراء المجتمع، وجزاؤه عقاب الضمير وجزاؤه المسؤولية امام عدالة السماء.. ولكن هل وقف الضمير الإنساني ولو للفرجة والتندر أمام المحن التي لا مثيل لها في حال نشوب حرب نووية. ان العالم الغني سائر نحو الكارثة.. ولا شك ان انعدام الضمير كارثة كبرى.. فهو يزيد من الترسانة النووية وهو على علم تام بأن الحرب النووية ستقضي على الحضارة البشرية كما تعرفها. وبعد، فهي حضارتنا على أية حال ونحن الذين اقمناها، ولعل هذا يعطينا الحق ايضاً في تدميرها!! غير أننا لم نأت بالانسان على الارض ولم نخلق النوع البشري، ناهيك عن غيره من انواع الحياة التي تشاطرنا العيش على هذا الكوكب، ولهذا فإن أية سياسة دفاعية تهدد استمرار الحياة على الارض بهذه الصورة انما هي محض جنون.

ان ما أعطى بداية الحياة في زمن ما قد يغدو سبباً لنهايتها وسوف يحمل تأثير التيار فوق البنفسجي طابعاً كونياً ولكن المحيطات والبحار ستكون من هذه الناحية اكثر عرضة للهلاك من أي جزء آخر من المجال الحيوي، وستهلك غالبية الكائنات الوحيدة الخلية، اساس الغذاء في عالم حيوانات البحار وسيغدو عالم النباتات ايضاً هدفاً غير محصن. اما عالم الحيوانات فمن المحتمل أن يحمي الصوف والريش الحيوانات من الحروق الى حد ما لكنها لن تحمي عيونها وسيكون هلاك للحيوان.

لقد قام البروفسور السوڤياتي (نيو كيتسوف) من وزارة الدفاع السوڤياتية بتحليل انفجار قنبلة نووية. فسيشعل الضوء المنبعث مساحة الف

كيلو متر مربع فوراً، وتتضمن (١٠) ملايين متر مكعب اما الطاقة الحرارية المنبعثة فإنها تفوق الانفجار نفسه بعدة مرات. وسيعلو جزء هائل من المحروقات والرماد باتجاه التيارات الهوائية وينتشر في الفضاء وتلك الكتل من الغبار تثير قلق العلماء فيوردون امثلة تتحدث عن الذيول والالسنة الطويلة الناجمة عنها ولقد دلت الدراسات على ان التشوهات الناشئة عن فحص بعض الحوامل بالاشعة، قد انتقلت الى الطفل فإلى ذرية هذا الطفل فيما بعد. وقد قال احد اساتذة جامعة طوكيو، ان التعرض بالاشعة الذرية من انفجارات هيروشيما وناكازاكي ومن معالجة المتطوعين بأشعة بتا المنبعثة عن كوبالت (٦٠) قد احدثت تبدلات جذرية في نشاط القشرة الدماغية، اورثت ميلًا الى الشغب والرغبة في العنف.

ولقد عرضت قضية التشوه الوراثي بفعل الاشعة على احد المسؤولين عن قسم الاشعة في احد المستشفيات الكبرى وطلب رأيّهُ في الحرب الذرية، فأجاب قائلًا «بعد مدة من الزمن ستشاهد الاجيال القادمة اناساً يسيرون في الشوارع ولهم في كل يد ثماني اصابع أو أن منظرهم سيكون شبيهاً بمنظر المخلوقات التي يصورونها قادمة من كواكب اخرى».

ولكن، فبينما ستندلع الحرب العالمية الثالثة، لن تجد البشرية احداً ليسجل عدد الضحايا وهو ما عبّر عنه المفكر الفرنسي «جان جاك سرفان شرايبر» بقوله: ولا تنتظروا أنتيغون اخرى تخرج من الالياذة وتتقن الصراخ في وجه المستحيل - فالتاريخ لا يُسجل عادة تأوّهات الضحايا» وهل سيعود فينا هنري دونان، السويسري الذي شاء له القدر أن يشهد ما تركته حرب «سولفرينو في ايطاليا» عام ١٨٥٩ من آثار مدمرة وهاله بصورة خاصة رؤية الجرحى الذين يموتون دون عناية واسعاف من جراء نزف دمائهم وهم يستنجدون ولا منجد.

على أنني موقن أن الصدمة التي تجتازها الانسانية الآن آنيّة سيأتي من بعدها الطوفان... وهو في أحسن احواله لن يكون بسيطاً.. ولكن بالرغم من

ذلك، فإن بيننا من يظنون أنهم إن اختطف كل من حولهم فلم يبق الاهم، لظلوا وحدهم في أمان! فوأسفاه عليهم من الآن!!

ان ذلك كله بسبب المرض النووي.. أنه هو الذي احدث حفرة عنيفة في العقول.. انه الثعبان الذي يلتقم الحمامة ولو طارت لنجت ولكنه يشلها نفسياً فلا تحدثها نفسها بنجاة.. والقطة تفترس الفأر لا لأنها تلحقهُ عدواً ولكن لأن نفسيته تحول بينه وبين الصراع من اجل الحياة لواذاً بالفرار.

لقد بدأ الصراع الحقيقي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حول « حرب النجوم » بعد اعادة انتخاب ريغان للمرة الثانية فريغان ومستشاروه يتحدثون عن حرب النجوم التي يمكن أن تكون بمثابة سيف « ديمقليس » على رأس السوفيات على تعبيرهم هذا « السيف » الذي تقوم مراكز القيادة والمنتجزات في لورنس ليفرمور من كاليفورنيا بشحذه وصقله بحجة إنه مبادأة الدفاع الاستراتيجي مع أن هذه المفاهيم حظيت ببعض الترحاب في بواكير الامر، إلا أنه سرعان ما تصدى لها الكثيرون واصبحت محطة جدل ونقاش ونقد فتعرى المكنون في جوانبها الخفية وبانت نيتها الحقيقية. ولا جرم أن يستكين المرء للوهلة الاولى الى سحر استراتيجية حرب الفضاء. فمن فتنتها الخلابة أنما تمن على من له حوزتها بدعة الامن والاستقرار، فلا يخال بعد ذلك خطراً فتاكاً وفادحاً سيتسلط من خصمه ولا يتربص له.

حقق فيلم « حرب النجوم » ١٩٧٧ والجزء الثاني منه « الامبراطورية ترد الهجوم » للفنان جورج لوكاس الذي يفكر حالياً في إنتاج الجزء الثالث حقق نجاحاً « خرافياً » وحرب النجوم بجزئيه حكاية شعبية تثير خيال الصبيان وتمتع الشباب وتوفر تسلية خالصة من استنتاجات اخلاقية مركبة.

ولقد أطلق الفنان ذو الخيال العلمي المبدع « ستانكي كيوبريك » الذي قدم اهم السهام في مجال الخيال العلمي بفيلمه (٢٠٠١، اوديسة الفضاء). وهي رحلة أوديسيّة كبرى للانسان منذ كان بدائياً الى أن بلغ في العام

٢٠٠١ ذروة اللقاء مع الكائنات الذكية الاخرى في الكون. ولكن هذه الرحلة كانت مأساوية فجعلت الانسان أفحش من أن يدع مجالًا للسيطرة على الكون.

لقد اجاد المخرج الامريكي «جورج لوكاس» في إخراج «حرب النجوم» والذي يدور حول القتال بين الكواكب. وقد تحولت مادة الفيلم الى مطلب مركزي للنخبة الامريكية الحاكمة. فهم يريدون الحرب القادمة أن تكون باستخدام الكومبيوتر والليزر. والايام تمر سريعاً.. ومختبرات كاليفورنيا تعمل بسرعة أشد.

ولكن.. يجب أن يحذر الانسان مما يحيط به.. فهو غارق في حمأة حرب مع نفسه لتدمير نفسه.. يجب ان تتوقف هذه الحمأة وأن يحاكم كل مجرم هرب امام محاكم دولية محايدة وحاسمة.

دعونا في الختام نتذكر مجدداً مقدمة دستور اليونسكو من «أنه لما كانت الحروب تبتدئ في عقول الناس ففيها يجب أن تبنى حصون السلام دعونا نرفع عالياً ما شيدنا من هذه الحصون ونشيد المزيد، وذلك باقتناعنا اولًا واقناع من عنده قدرة على الإقتناع ثانياً أنه ليس بالحرب تحل المشاكل الانسانية، بل بها تبدأ، وانه في حروب اليوم، حروب الضغط على الازرار، حروب الذرة والهيدروجين والنيوترون والجراثيم والليزر والاشعة، ليس هناك رابح وخاسر فالبشرية كلها خاسرة، فهذه الحروب هي الصفحة الأخيرة في سجل الحروب التاريخية، منذ الخليقة حتى يوم القيامة. فمصير الانسانية مترابط.. وهي تريد أن تدخل القرن الحادي والعشرين، ولم يبقَ من الزمن الا لمحة خاطفة في موكب التاريخ فعليها أن تدخله وهي تحمل معها اغصان الزيتون وحمائم السلام.. واننا بها نتفاءل والله سميع مجيب.

اهم المصادر والمراجع

١ ـ شكري، محمد عزيز، محاضرات في « قانون الحرب والحياد » القيت على طلبة السنة الثانية في كلية الحقوق والشريعة بجامعة الكويت وطلبة العلوم السياسية فيها، ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ص ١.

٢ ـ جورج ثابر عن تجارة الاسلحة الرهيبة، عرض وتحليل الاهرام المصرية، العدد ٣٠٨٩٨ الصادر في ١٩٧١/٧/١٦.

٣ ـ الفارض، عبد الواحد محمد يوسف، أسرى الحرب، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٨.

٤ ـ توماس بورز؛ الشتاء النووي والتخطيط للحرب النووية، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، العدد ٢٠، المجلد الرابع، ١٩٨٥، ص ٧.

٥ ـ الدفاعي، عزيز؛ حرب النجوم المخطط الجديد لحماية الارض ام لتدميرها، مجلة الف باء، بغداد، ص ٢٢.

٦ ـ حومد، عبد الوهاب؛ الاجرام الدولي، مطبوعات جامعية، الكويت ١٩٧٨ ص ١٥، ص ٥٥، ص ٥٦.

٧ ـ د. نبيل زكي أحمد؛ سباق التسلح وتطورات الاستراتيجية النووي الامريكية، جريدة الجمهورية البغدادية، السبت ١٩٨٥/١١/١٦.

٨ ـ د. كاظم هاشم نعمة؛ حرب الفضاء، مجلة مختارات سوقية، مجلة

سوقية تصدرها دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالي في وزارة الدفاع العراقية، بغداد، العدد الثاني، تموز ١٩٨٥، ص ٨١.

٩ ـ موسى زناد سهيل؛ الحرب النووية، دار القادسية للطباعة، بغداد، ١٩٨٥.

١٠ ـ د. عبد العظيم أنيس؛ روبرت اوبنهايمر من إنتاج القنبلة الذرية الى محكمة مجلس الشيوخ، مجلة العربي، الكويت، العدد ٢٤٥، ص ٣٠، ص ٣٣.

١١ ـ جريدة العراق، بغداد، في ٢٣/١١/١٩٨٥، ص ٣، ص ٥.

١٢ ـ مجلة الف باء، بغداد، العدد ٨٩٧.

١٣ ـ جريدة الجمهورية البغدادية، في ١٧/١١/١٩٨٥، ص ١٠، ترجمة: رعد اسكندر عن الفيغارو الفرنسية.

١٤ ـ مجلة الجديد في العلم العسكري وفن الحرب، تصدرها وزارة الدفاع العراقية، دائرة التدريب، العدد ٣، ١٩٨٥.

١٥ ـ اللواء المهندس قحطان عبد القادر العزاوي؛ حقائق عن الاستخدام العسكري للفضاء، مجلة العلوم والتقنية العسكرية ـ وزارة الدفاع، المديرية العلمية، العدد ٥، ١٩٨٣ «مترجم».

١٦ ـ مجلة قضايا عربية، لبنان، العدد ٣، ١٩٨٣.

١٧ ـ مجلة علوم، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الرقابة العامة، بغداد، العدد السابع، أيار ١٩٨٥.

١٨ ـ مجلة العلوم والتقنية العسكرية ـ وزارة الدفاع العراقية؛ المديرية العلمية، العدد ٥، ١٩٨٣.

١٩ ـ آر. أوفينكوف، برنامج حرب النجوم، طور جديد في سياسة واشنطن العسكرية، عن مجلة «الشؤون الدولية»، العدد الثامن، ١٩٨٥، ترجمة مجلة آفاق عربية، بغداد، العدد الثاني عشر، كانون الاول، ١٩٨٥، ص ١٩ ـ ص ٢٣.

٢٠ ـ مجلة العربي، الكويت، العدد ٢٨٧.

٢١ ـ اللواء الركن محمد فتحي أمين؛ قاموس المصطلحات العسكرية، مطبعة التوجيه السياسي، ١٩٧٦.
٢٢ ـ مجلة الاقتصادي، تصدر عن مؤسسة الاهرام القاهرية، العدد ٧٢٢، ٧٣٠.
٢٣ ـ مجلة العلوم، تصدرها وزارة الثقافة والاعلام، دائرة الرقابة العامة، بغداد، العدد ١٣، ١٩٨٥، محمد إسماعيل فرج، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية..

المحتوى

من آثار المؤلف

١) الأطماع الصهيونية والاستعمارية في البحر الاحمر ـ مطبعة النجوم ـ ١٩٨٣.
٢) اخطار الهجرة الأجنبية للخليج العربي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٥.
٣) الحرب النووية، دار القادسية للطباعة، ١٩٨٤.
٤) الحرب النفسية، دار القادسية للطباعة، ١٩٨٤.
٥) القواعد العسكرية الاجنبية، دار القادسية للطباعة، ١٩٨٤.
٦) افكار في تربية الطفل، دار ثقافة الاطفال، تحت الطبع.
٧) التغلغل الصهيوني في افريقيا وامريكا اللاتينية، مخطوط مجاز من الرقابة، لم يطبع بعد.
٨) شارك في مسابقة ديوان الرئاسة الموقر في المسابقة الكبرى لتأليف الكتب العالمية، بكتاب « الذرة ».